

المؤسّسة
العربيّة
للدراسات
والنشر

سلسلة أعلام الفكر العالمي

شيشرون

تأليف:
كلود نيكوليه
آلان ميشال

ترجمة:
محمّد ذيب

شيشـــــرون

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقيا - موكيالي بيروت - ص.ب. ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٢

سلسلة أعلام الفكر العالمي

شيشرون

تأليف:
كلود نيكوليه
آلان ميشال

ترجمة:
محمّد ذيب

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

ينبغي احترام الناس كل الناس، أوائلهم وأواخرهم.

شيشرون

متفكر أمام السياسة

لقد خلف النحاتون القدماء تماثيل لشيشرون تترك فينا انطباعاً غامضاً عن الرجل. فالملامح جميلة، لكنها مثقلة لدرجة لا نعرف معها ما إذا كان طابعها المهيب عائداً لعامل السن أم ناضحاً عن عامل القوة.

الوجه وجه مفكر ووجه مأساوي معاً، وجه حكيم ووجه ممثل أيضاً.

والبَصَر الصافي الممعن يعبر عن قوة البصيرة وعن التمرس بإنعام التفكير البعيد. وكأن الرجل لم يقصر مبتغاه على امتلاك أفئدة الجموع، فإن ما حول عينيه يبين اعتياده القراءة والبحث.

هذه التفاصيل كلها غير كافية لشرح حياة شيشرون ولتلمس معالم التناقض والغموض التي جعلت حياته في اضطراب. إذ لكل حقيقته، وحقيقة شيشرون بل حقائقه ـ مذهلة مريعة. فالسيد كاركوبينو، في

كشفه أسرار المراسلات، يعتقد أنه تمكن رميه بالزوج غير الشريف وبالأب الضعيف، وبرجل الدولة الانتهازي على وجه الخصوص. لقد عرجنا على هذه التهم بحق شيشرون ونحن في معرض الحديث عن مظهره. على أي حال، فإن وجهه يمثل أشد الوجوه ذكاء ورهافة في ما هدتنا إليه تماثيل القدماء وقد يعترض معترض بأن الذكاء ورهافة الحس لا يكفيان إذا لم يقترنا بالرصانة والقوة. وهل أعوزتاه ؟ وهو الذي تجرأ، منذ نعومة أظفاره، على حماية (حليفه) روسيوس أميرنيوس ضد جبروت عتقاء سيلاّ، راهناً لقاء جرأته حياته ؟

في الواقع، فإن هذه الرهافة المتأتية من الثقافة وروح التفكير، المتأثرة بالعمل رغم تفلتها منه في آن معاً كما تبديه بعض الملامح، هذه الرهافة تحمل اسمها التالي:

شيشرون هو من أولئك الإنسانيين الذين لا يضعون شيئاً فوق منزلة الأدب. ولقد كان مديناً لهذا بأفخر أمجاده، وكان مديناً لأفخر أمجاده بهذا الشأن أيضاً. وكل الكتاب المدرسيين اشتكوا من هذا الفنان الذي زعم دائماً أن سمو التفكير ووجاهة التعبير منعقدان له. إلا أن انتساب كاتب ما إلى المدرسيين هو أمر جَلَل: فالقراء يسأمون ما تعلموه في المدرسة، يسأمونه بملء إرادتهم. . .

أما شيشرون فكاد يبعث السأم لسبب آخر؛ إذ لم يكن رجل أدب فقط، بل كان رجل سياسة أيضاً. فقد رمي بالتورط والضلوع، ونكث العهد، وبالسقوط. كما اتهم بظهوره تاره طرياً ليناً وطوراً مستميتاً دون أفكاره.

إن كلاً من هذه المواضيع التي نثيرها قد تجاوز شيشرون. لقد واجهه قدره مع قدر الجمهورية وهي إلى أفول. فحيث كانت ساعة الامبراطورية تدق، كانت أدمغة كبرى تتساءل عن معنى الواجبات السياسية وعن مداها. لم يكن لروما أمير بعد، ومع ذلك فقد كانت تشهد احتضار حرياتها. التقى كل من كاتون وقيصر وشيشرون ثم اختلفوا.

وفي حوارهم، انتخب كل من مكيافيلي ومونتسكيو أو سان جوست أفضل أفكارهم وقد كان شيشرون أحد أكبر شهود الالتقاء بين السياسة والقوة والعقل.

ولعل بعض معالم سيرته كافية لإلقاء الضوء على تناقضات حياته ومسلكه، وعلى غوامض عمله ونشاطه..

ـ نسبه ونشأته: ١٠٦ ـ ٨١

ولد ماركوس توليوس شيشرون يوم الثالث من كانون الثاني سنة ١٠٦ في أربينوم وهي مدينة صغيرة من مدن لاتيوم، متحدراً من عائلة أرستقراطية محلية.

وربما كان ذكاؤه ومواهبه ونسبه وتاريخ ولادته بذاته، أموراً سخرته لأصعب المشكلات.

ففي بداية القرن الأول، كانت روما تعاني أزمة مصيرية أدت بها بعدئذ إلى الامبراطورية. داخلياً، ومنذ قيام «منبريات الغراك Tribunats des Gracques انقسمت طبقات المدينة على نفسها.

واصطدم النبلاء بالشعب. في سنة ١٠٠ قبل الميلاد، انهزم المنبر الشعبي، وتداعى أمام ائتلاف جمع العائلات الكبرى ومنبري شعبي آخر هو ماريوس المولود في أربينوم أيضاً.

خارجياً، وخلال مفترق من سنة ٩١ إلى سنة ٨٨ واجهت روما مصاعب أخرى؛ إذا أضرمت المدن الإيطالية ضدها حرباً انفصالية. لكنها تمكنت بجهد جهيد من تحاشي الخطر وإعادة تلك المدن إلى حظيرتها.

وقد سهلت الأزمات المختلفة سيطرة القادة العسكريين لا سيما ماريوس وسيلاّ اللذين تصادما في حرب أهلية ضروس معتمدين على القوى السياسية وعلى جنودهما معاً.

وإثر موت ماريوس سنة ٨٢ بدأ حكم سيلاّ الفردي العسكري.

من هنا، فإن شيشرون منذ طفولته قد عاش في خضم الحرب الأهلية. وكانت عائلته موالية لروما، متعلقة بالتقاليد القديمة، مرتبطة ببعض الشخصيات الكبرى في مجلس الشيوخ، هذه الشخصيات التي سقط العديد منها بالعزل والتطهير سنة ٨٤.

هنا وجد شيشرون الشاب خياره الأول.

كانت اليونان جميلة، آنذاك، نحو عام ٩٠ تقريباً. وكانت مدنها تستهوي أولئك الذين يحبون الفن والأمان. وكانت مدارسها في أوج ازدهار لم تعهده في سالف الزمن. فثمة فلاسفة يعالجون فيها مسائل طمأنينة النفس وانعتاقها. وغيرهم، كانت تعاليم أبيقور تنفي كل ما

يخالف العقل في كل عمل. وقد فهم شيشرون هذه الدروس جميعاً: أما صديقه أتيكوس فتابعها واستعد للمضي إلى جنائن أثينا لقضاء أيام من السعادة والتعقل. إلا أن شيشرون لم يرافقه. واختار الانخراط في العمل دون التخلي عن الثقافة. فتابع دروس الرواقي ديودوت والأفلاطوني فيلون دولاريسّا. وألهمه الخطابة اثنان من كبارها هما الرومانيان أنطوان وكراسوس. هكذا ربما يمكن فهم النزعة الأولى لدى فارس أربينوم الشاب: إذ اختار هذا الطموح أن لا يتخلى عن شيء، فأراد لنفسه الحكمة مقرونة بالعمل.

- من مطلعه حتى القنصلية ٨١ ـ ٦٣.

هنا الكثير من الطموح الذي سيتحول إلى صنائع في السنين التالية. طموح تفتحت له المناسبات للشهرة. كان سيلاً مستولياً على السلطة ببأس وعسف تبّطا عزائم المعارضين. مع ذلك فإن شيشرون الشاب قد هاجمه بتأييد خفي من بعض النبلاء. وفي عام ٧٩ خسر سيلاّ السلطة. لقد أتقن الخطيب لعبته. ترى، هل إنها لعبة؟

إثر حدوث اضطرابات جديدة، بدت الجمهورية ميالة إلى الهدوء. فقد أعاد «بومبي» الدستور التقليدي إذ انه كان نصير الشعب وكان معتدلاً كذلك. ومن هنا، ألفى شيشرون أن عليه اتباع السلم التقليدي لبلوغ سدة الشرف إنما، وقبل كل شيء؛ فإن شيشرون مدين لشهرته وذيوع صيته بمآثره في المحاماة. لقد باشر باكتشاف مرض، وهو أن فيرّيس حاكم صقلية كان يخنق المقاطعة وينهبها كغيره من الحكام الكثر؛ إذ نشر شيشرون الفرينات (Les Verrines) سنة سبعين فضيق على

فيريس الخناق. هذه المجموعة الخطابية طرحت مسائل سياسية. كيف ينبغي أن تعامل روما حلفاءها؟

لكن شيشرون قارب، بعد حين، مشكلات الدولة الكبرى. في سنة ٦٧، حث الشعب على منح «بومبي» أوسع الصلاحيات لقهر الملك ميتريدات في الخارج، والقضاء على القراصنة الذي عاثوا في البحر فساداً. وأخذت روما المرتاحة داخلياً ترنو إلى الأمن التام الذي سينعمها به بومبي في عام ٦٢. هكذا أخذ يتسع مجرى حياة شيشرون. وبدت مصالحه متحدة مع مصلحة الأمن الروماني. وهكذا أزفت ساعة استعداده لتسنم سدة القضاء الأعلى: القنصلية. وانتخب لها سنة ٦٣ ضد كاتيلينا أحد النبلاء، الأمر الذي ظهر في غير صالح الجمهورية. إذ ان «بومبي» كان يحارب في آسيا، ولم يبق من حماية لروما إلا حذاقة قنصلها وشجاعته. وقد أعملها القنصل شيشرون، فكشف الأقنعة عن المتواطئين وأجبر كاتيلينا على الفرار من روما، وألب مجلس الشيوخ على الضالعين معه الباقين فيها ثم دفعه إلى تصفيتهم.

ثم أضاع شعبيته المنهارة، وقد تداعى أنصار كاتيلينا إلى الديما غوجية فكانوا وراء اقتراح لمصلحة الشعب بسن قانون زراعي اضطر شيشرون إلى مناهضته. وهذا خروج على طموح شيشرون، ذلك الطموح الذي ساق الخطيب إلى البعيد، إلى ما بعد الطموح ذاته.

التعثر والحيرة والتراجع من ٦٢ إلى ٥٠:

وحل وقت الكبوات، ذلك أن مؤامرة كاتيلينا لم تكن إلا الفصل الأول في المأساة التي قلبت الجمهورية. كل الشخصيات الرئيسية كانت

ضمن المشهد. كاثون دعم شيشرون أما يوليوس قيصر، فبعكسه طالب بإبقاء المتؤامرين على قيد الحياة، وتابع نشاطه متحالفاً سراً مع الصيرفي الثري كراسوس ومع بومبي العائد من آسيا منتصراً، وذلك في عام ٦٠، وأخذ الواقع يدفع هؤلاء الثلاثة إلى اقتسام السلطات. إذ ان شيشرون ممثل التقاليد الجمهورية ألفى نفسه وحيداً في مواجهتهم. وجرى التشويش عليه مع أحد محمبي قيصر المدعو كلوديوس والذي افتضح أمره عام ٦٢ عندما تنكر في زي امرأة وتسلل ما بين سيدات روما اللواتي كن يحتفلن بعيد الآلهة الصالحة.

في عام ٥٩ غدا قيصر قنصلاً واعتمد سياسة شعبية. وفي عام ٥٨، ألقى شيشرون في مكائد كلوديوس. كان النفي ينتظر الخطيب، نظراً لاتهامه بقتل مواطنين رومانيين دون محاكمة.

إلا أن أصدقاءه تمكنوا من استدعائه في السنة التالية بعد حصولهم على إذن له بالعودة وبعد أن لمسوا ضعف حالته العصبية من خلال رسائله إليهم.

كانت عودته تبعث عنجهيته، لكن منزل العودة الذي كان ابتناه على البالاتين قد أزيل من الوجود وأصيبت ثروة شيشرون بأفدح الخسائر، إضافة إلى أن كلوديوس ما يزال قوياً. إلا أن شيشرون، وقد حنكته التجارب، تحاشى الجميع وبخاصة بومبي. كان يريد اجتناب الاصطدام بقيصر. وفي كل لحظة، وجد نفسه مضطراً إلى حماية أصدقائه بوجه كلوديوس وهم كاليوس وسيسيتوس وبلانشيوس الذين وقفوا بجانبه إبان المؤامرة، ناهيك عن حماية نفسه، إذ ان زمر كلوديوس مسيطرة على الشارع سيطرة «جعلت أروع خطيب في العالم يخشى على

نفسه من ضربات العصي. في عام ٥٦ جدد العهد في لوكس ما بين قيصر وبومبي وكراسوس، فأذعن شيشرون وانحنى لذلك. وقد «غنى القهقرى» حسب عبارته الحرفية، ودعم قيصر في مجلس الشيوخ عندما طلب تمديد سلطاته في غوليا. فهل تخلى عن مثاله الجمهوري كما اتهمه عدد من أصدقائه؟

لقد دافع عن نفسه بأنه مضطر للانحناء أمام الظروف السياسية التي حرمته من السلطة. هذه الحقبة من عمر روما كانت خصبة وعظيمة. فقد أنهى قيصر تهدئة الغوليين ثم ذهب في عام ٥٢ للقضاء على فرسنجيتوركس. ومن أجل تكريم الخطيب، اصطحب معه أخا شيشرون. ثم كلف شيشرون نفسه الاهتمام بأعمال التجميل في الساحة العامة التي أمر قيصر بإنجازها. هنا، شيء ما كان يخامر الأذهان. فثمة صنائع كبرى تقام وثمة قلق كبير على مصير روما وعلى ظروف الحياة البشرية.

في عام ٥٤ قرأ شيشرون كتاب (الطبيعة البشرية؟ De natura rerum) الذي ألفه لوكريش وربما ساهم في نشر هذا الديوان. ثم مبعداً نصف إبعاد عن إدارة الأعمال، يتأمل في معنى العمل السياسي فكتب حوارين كبيرين هما: (الخطيب De orator) حول البلاغة، و(الجمهورية De republica) حول الدساتير السياسية. وأصبح معلم التفكير بالنسبة للرومان. لكن بعض المثقفين القيصريين قاموا بالرد عليه. فحوالى عام ٥٠، وجه «سالّوست»، الذي غدا مؤرخاً فيما بعد، رسائل سياسية إلى قيصر لمحاربة بعض الأفكار التي عرضها شيشرون والمؤيدة لحكم النبلاء La Noblesse.

في هذه الأثناء، كان الوضع في روما آخذاً بالتدهور. في عام ٥٣، قتل كراسوس في حملة ضد البارتيين. وكان قيصر في غوليا أمام مصاعب جمة. في المدينة، قرر شيشرون استعادة الشارع من كلوديوس الذي قتله ميلون أحد رجال الخطيب. إلا أن بومبي عمل على الحكم بنفي القاتل عام ٥٢. فتضاءلت أهمية شيشرون وكادت تضعف أكثر عندما تعين عليه أن يصبح نائب قنصل ويخرج لحكم سيليسيا سنة ٥٠ ـ ٥١. هناك، أعطى انطباعاً بأنه أكثر الرومان فائدة وأقلهم ضرراً، لولا أن الحرب الأهلية اشتعلت حينئذ في إيطاليا وجعلت من قيصر وبومبي عدوين مختلفين.

من قيصر إلى مارك أنطوان (من ٤٩ إلى ٤٣)

تزايدت حيرة شيشرون. في ١٢ كانون الثاني سنة ٤٩ اجتاز قيصر الروبيكون حيث تراجع بومبي أمامه منسحباً. في هذه الأثناء، وصل نائب القنصل من سيلسيا silicie إلى روما ليرى بومبي وقد فر من إيطاليا. عند ذلك قام بجهود عقيمة للتفاوض من أجل السلام. لقد دعاه المعسكران إلى ذلك، أما هو فلم يعرف أن يحرز لحسابه إلا كتابة رسائل الشكوى إلى صديقه أتيكوس، وثار التساؤل عما ينقذه من تردده، بل من استمتاعه بالحيرة.

لم يغادر إيطاليا إلا في السابع من حزيران سنة ٤٩ لينضمَ إلى البومبيين الذين ما لبثوا أن انسحقوا بعد ٢٢ يوماً في فرسال، ثم دبَّر ملك مصر اغتيال بومبي الفار في ١٨ آب، فغدا شيشرون، منذ شهر كانون الأول، في برندس رهن أوامر قيصر.

الأعوام التي تلت كانت تعيسة. بين البومبيين الأواخرمن لم يستسلموا.

في ليلة ١٢ـ١٣ شباط ٤٦، قام كاتون، وقد حشره قيصر في أوتيك، بقراءة موت سقراط ثم أرتمى على سيفه باقراً بطنه. آخرون من الحزب الجمهوري ارتضوا رحمة قيصر. في تموز سنة ٤٦ تكلم شيشرون في مجلس الشيوخ ليشكر الديكتاتور على قبوله استدعاء مارسيلوس. إن الخطيب مبجل، وهذا ثمن صداقته الماضية لقيصر. لكن دوره هزيل، فمجلس الشيوخ والجمعيات الشعبية لم تعد أكثر من مظاهر مؤسسات. لم يعد هنالك دعوى تتابع في المحاكم. فكل كبيرة وصغيرة تمر بقيصر، وأحياناً، لا بد من مرورها بحجابه.

في آخر عام ٤٦، أخذ شيشرون يعتزل الحياة السياسية. فحياته الخاصة كانت لها معاناتها. إذ طلق زوجته الأولى تيرنتيا وأبدلها ببوبليليا الفتية جداً، بردح قليل من الزمن. في شباط سنة ٤٥ توفيت ابنته توليا بعد انفصالها عن زوجها دولابيلا أحد ضباط قيصر. وكان شيشرون يحب ابنته حباً جماً، فأخذ يبحث عن الوحدة والعزلة. خلال عام، كرس كامل وقته تقريباً لكتابة مؤلفاته في الفلسفة الخلقية. ولا يعني ذلك أنه تخلى عن نشاطه بل إن نشاطه هو المتخلي عنه. لكن وبما أنه يتبصر بالمستقبل، فقد قضى أعواماً في شد عريكته. لقد رأيناه فيما مضى محتاراً ومرتاباً، فاستجمع نفسه وتمرس بالتفكير في الحماسة وفي المثالية.

في ١٥ آذار سنة ٤٤، اغتيل قيصر دون المُلك الذي صبا إليه، أمام مجلس الشيوخ، وفي غياب شيشرون. واتخذ القتلة من الخطيب مستشاراً باديء الأمر. لكن القنصل مارك أنطوان أعاد جمع حزب قيصر، وكان

النفي قدر مغتاليه بروتوس وكاسيوس. فهل سيتبعهما شيشرون ؟

إنه آخر خيار له. لقد بقي في روما وقضى الفترة من أيلول ٤٤ إلى نيسان ٤٣ ودعـا الفيليبيين إلى مقارعة مارك أنطوان.

وجمع البومبيين حوله، كما تلقى دعماً من الفتى أوكتاف بن قيصر بالتبني البالغ ١٨ عاماً من العمر والمنتصر له عدد من الفصائل العسكرية. في البداية، تم طرد مارك أنطوان من إيطاليا، لكنه تمكن من كسب تأييد عدد من قادة المقاطعة. أما أوكتاف، فقد نهض ضد مجلس الشيوخ وأخذ روما. في تشرين الثاني سنة ٤٣ شكل أوكتاف وأنطوان وليبيه ما سمي بالتريومفيرات الثاني، ونظموا لوائح شطب. وفي ٧ كانون الأول، وافى شيشرون مغتاليه في غاييت.

إن قدر شيشرون ينضوي تحت اختيارين بطولين ويعتبر كذلك فشلين كبيرين.

وبين المنفى سنة ٥٨ والموت سنة ٤٣ طالما ارتضى هزيمته. هذا القارىء الرواقي طالما بكى، هذا المنذور للحرية طالما ترك يديه في قيود الشك والحيرة.

وهكذا، فإن الوقائع لم تعطنا معلومات تفيدنا تماماً بشأنه. في كل واقعة نلمس العظمة كما ونلمس الشقاء. وهذا ليس كافياً للحكم على شيشرون ولا لتحليل طبائعه. نعود إلى التفكير في كلمة «إيراسم»: «لا أحد امتلك، مثله، فضائل أقرب ما تكون إلى الرذائل». ستتخلى إذن عن الحكم على شيشرون. لكننا سنعود لدراسة هذه الحياة دراسة تجعلنا أكثر تفهماً لها وأكثر فهماً لهذا الحوار القائم بين الفكرة وبين العمل.

عظمة الجمهورية الرومانية وبؤسها

مما يميز المدينة القديمة أنها تحدد هوية العمل السياسي وظروف الحياة البشرية، نظراً لاعتبارها مقاماً لأناس أحرار. بمعنى ما، لا شيء أكثر كلية (توتاليتارية) من هذه المدينة التي تتطلب من «المواطن الكامل الحقوق» بطالة تامة تقريباً إذا شاء تكريس نفسه للحياة السياسية في الداخل، أو لأمجاد السلاح في الخارج. وكل نمط آخر من أنماط الحياة، مهما يكن موسمياً، يذهب مذهب الخيانة.

لا نتكلمن عن العمل، عن التجارات الكبيرة والصنائع، لأنها تحمل في ذاتها مصدر عيب الاستعباد. والحرية مشدودة الأواصر بممارسة المواطنية ممارسة إيجابية خاصة وأن لغير العبد ظرفاً فضيلاً وامتيازاً. إذ فبعيداً عن السياسة والسياسيين لا شيء غير الاستعباد والرقيق. فمن الضروري إذن، أن نتلمس الطبائع العامة التي انطبع

بها المجتمع الروماني لكي نتمكن من فهم تفكير شيشرون السياسي والفلسفي وملكته الأدبية أيضاً، وجدانه الإنساني نما في ذلك المجتمع وفيه ترعرع. ومن العبث الفصل بين الرجل وبين نتاجه سواء في ذلك أبحثنا في شيشرون أم في سواه من الناس.

لقد كانت روما منتصرة مجلية في العالم القائم حول البحر المتوسط.

وإن كان عليها أن تتحمل حروباً ضارية ضد يوغورثا والسمبريين والتوتون؛ وإن كانت غوليا والشرق ومصر قد أفلتت من قبضتها، مع ذلك، فإن مهامَّها الخارجية أخذت تتحول إلى قضايا استعمارية. هنا تطابق الإخلاص للمهمة التي ستجعل روما مدينة «يبتلع قدرها قدر النوع البشري» تطابق مع اعتبارها مصطفاة للهيمنة على الكون بأسره.

وهكذا فكل شيء في روما ذو قيمة نموذجية وكونية شاملة، من شعاب سياستها الداخلية إلى الصراعات التي نشبت فيها إلى عظماء رجالها الذين غادروها.

ولم تغب عن عين شيشرون مسؤولية روما التاريخية حتى وهو يشهد احتضار نظامها السياسي أو ربما تحول ذلك النظام.

وقد طاب لبعضهم حيناً أن يقابل هموم شيشرون الصغيرة كسياسي مع النظرة القيصرية الشمولية الرسولية، ومع الوطنية العسكرية التي تحلى بها بومبي. فقد اتهم بأنه مال إلى الخروج على آداب اللعبة السياسية في الجمهورية. هذه تهمة جزاف بدون شك. ففي كل الظروف كان

يحمل هم مسؤوليات وطنه، متفهماً ومحللاً المشكلات المادية والمعنوية التي تواجهها روما في حكمها العالم وفي علاقاتها مع أهل المقاطعات، كان يحمل هذا الهم أمام كل من بومبي وقيصر ومجلس الشيوخ.

وكانت له «فلسفة امبريالية» ـ إذا شئنا القول ـ يتراءى لدارسها عن كثب أنها أسندت بحجة قائمة على تصور خاص للمدينة ولما هو عادل صحيح وما هو غير ذلك.

وما مجافاته المجد العسكري إلا انسجاماً مع نظرية السلطة المدنية الداخلة في صلب فلسفته العامة.

هكذا بقيت روما، بالنسبة له، الوسط الممتاز ومركز صبوة طموحه الفني، في واقعها المزري كما في مهمتها المثالية.

الأزمة السياسية: الأحزاب.

روما، الآلهة والأم، كانت، حين بدأ يبزغ فيها نجم شيشرون، غارقة في أزمة عميقة. إنها أزمة داخلية: اجتماعية وسياسية.

في السياسة الداخلية الرومانية، لم يرد أحد أن يكون هنالك ردة فعل على لهج شيشرون بالأخلاق، إلا صراع العائلات الكبيرة الذي لم يكن أفضل من صراعات العشائر والمحسوبية، وإلا تصفية الحسابات؛ في معارك الحرب الأهلية، بين الكوندوتيري سواء الجهلاء منهم مثل ماريوس والعباقرة مثل قيصر. هذه الحال كانت أسرع الطرق إلى الفاقة والعوز.

هنالك، أولاً، مشكلات اجتماعية واقتصادية، تناهى إلى علمنا منها

قسط تراوح بين تذاكي المعاصرين في فهمها وبين عدم فهمهم فشابها غموض.

ففي قرابة النصف الثاني من القرن الثاني قبل المسيح، هزت روما تغيرات كبيرة فيها كانت تتعاظم على صعيد إيطاليا والعالم في الوقت ذاته فالمواطنية الريفية أخذت تفتقر، وخير شاهد على ذلك الانخفاض المتواصل في أرقام المبالغ المحصلة بدل ممارسة حق الانتخاب وبالتالي تناقص عدد الناخبين فتناقص عدد المواطنين القادرين على دفع البدل وذلك من خلال القرن الثاني. كما شهدت هذه الفترة قيام الارستقراطية باحتلال الإقليم الذي صادرته الدولة الرومانية في أثناء فتحها ايطاليا، واتساع رقعة الملكية في اقليم الجمهورية الرومانية عينه. وانتزعت من صغار الفلاحين أقيانهم ورعيانهم الذين كانوا يثلمون جبل الأبنيان من السهل إلى المروج على نغم تعاقب المواسم، وأعطيت إلى مزبي المواشي. واتخمت روما ذاتها جماعات أخذت تفتقر وتتركز في سوقة مدينة. وراح الفقراء شيئاً فشيئاً يفرغون الجمهورية من فضائلها إذ أخضعوا لمزاد النبلاء الانتخابي فجرَّدهم من أخلاقهم ذلك الفساد القانوني والمنظم، وبهرتهم هالات احترام عهلة الشرق، وأيديولوجياته الصوفية.

ثم إن توزيعات القمح السنوية وهي مشاهد تعاظمت أكثر فأكثر قد أضافت مفاعيلها إلى مفاعيل ضراعات طوابير المجندين المتأهبين، منذ أن شرع ماريوس باب الجيش للفقراء، للاعتراف بالجنرال، الامبراطور، سيداً مطلقاً عملوا على انتخابه وانتظروا مغانمه.

في هذه الظروف، بدأت ترتسم عدة تيارات سياسية في روما، كانت تحكم المدينة تقليدياً أقلية من العائلات الكبرى. كان كبار القضاة الذين

هم في سدتهم، وأولئك الذين يتمرسون بالأمجاد ليدخلوا مجلس الشيوخ وهو المجلس الأعلى في المدينة، هؤلاء وأولئك ينتمون بشكل عام إلى طبقة النبلاء التي كرس تاريخ روما نفوذها. من هنا نفهم كونهم في الغالب محافظين. ولحماية الامتيازات العديدة المكتسبة، فقد أنشأوا مثالاً أرستقراطياً وشكلوا حزب «أوبتيمات Optimates». إلا أن الأزمة الاجتماعية التي تمر فيها المدينة قد سهلت نشوء اتجاه مضاد وتناميه. فمنذ الغراك Les Gracques (١٣٣ - ١٢١ق.م) أو قبلهم بقليل، كان في روما حزب «شعبي» يدعي، وهنا الجديد، أنه لديه برنامجاً للتطبيق (فيما أن قادته هم في الغالب من النبلاء وهذا أمر طبيعي، وأن صراع الأشخاص والمحسوبيات لم يكن مجهولاً فيه).

طبقات أم طوائف:

لكن هذا الوصف لا يعطي فكرة واضحة عن البنى الاجتماعية والسياسية في روما. فلنتجنب المعاني والمعالم الحديثة لكي نتبين العلاقات الاجتماعية في المدينة القديمة. عندما تحدثنا عن علية القوم من محافظين وقادة لم نوضح تماماً أن هذه الطبقة هي من الارستقراطيات المعتدة بالحق الإلهي، التي تعيش على هالتها، والتي كأنما نذرت للمجد العسكري وكأنما تصافح الآلهة بعد كل انتصار كما يتبين ذلك في الاحتفالات الدينية الخاصة بالنصر في الحروب. هذه الارستقراطية تسيطر على قرى ومجموعات بشرية وأقاليم وتقيم روابط مع عمالها عليها. في روما، على الأسياد تغذية عوامهم وإلهاؤهم. فالروابط الاجتماعية، على هذا المستوى، ليست بالبسيطة كما أنها ليست بالحديثة. ثمة علاقة قانونية متينة ومعها جامع مشترك صوفي، يوحدان غداة يوم النصر الشعب

والإمبراطور، فيهتف الشعب للإمبراطور بينما يرمقه أنداده بنظرة الحسد.

لقد تمكن بضعة نوابغ طامحين، أمثال سيلا وقيصر وأوكتاف، من أن يستغلوا تلك القوى التي كانت غارقة حتى نصفها في الدجى، وتلك الإقطاعية الهرمة، وأن ينشئوا ويؤسسوا لهم نفوذاً بغير حدود.

أمام هذه التحفظات، لا ينبغي إهمال المعطيات العديدة التي أوحت بطرائق منطقية وحديثة. إنه المال أولاً؛ فهو الذي لا بد منه لأي من الهيئات والأشخاص، الجمهورية منها والمتألهة، إنها تحتاج إليه جميعاً، ليس لأجل الرفاهية وحسب، بل لا بد من مداخيل هائلة تمكنها من لعب دورها وتغذية عمالها وأنصارها، وتدريب جيوشها وتجهيزها.

والمصدر الرئيسي لهذه الثروة هو الأرض، المجال الفسيح الممتد الذي لا يتمكن السيد أن يلم به، والذي يتنوع بين مساحات للمراعي ومساحات لمزروعات وأشجار كالكرمة والزيتون.

لكن ثمة صعيداً اقتصادياً آخر، إذ شئنا القول، يمكن أن يستقل بذاته. فهنالك، بالتأكيد، تجارة واسعة، ومبادلات مالية، ومصارف كبيرة. إن مراسلات شيشرون تكشف عن معرفة محام عظيم بالمحاسبة، وتدل، بطريقة غير مباشرة، على طابع الحياة المصرفية في عالم حوض المتوسط. فإلى مفهوم الرأسمالية القديمة يتبدى لنا أن طبقة فرسان أضيفت، وإضافتها إلى المفهوم السابق مفيدة. هذه الطبقة التي نسميها أحياناً بالبرجوازية (Middle class) هي التي أنجبت شيشرون. فإذا أمعنا فيها عن قرب، لمسنا أنها محدودة الكيان، وربما كان ذلك سبباً من

أسباب سقوط شيشرون.

لا شيء يمكن أن ينسينا طابع تلك البنى الاقتصادية الملوث؛ لا المبالغ المختلف عليها، ولا تعقد المحاسبات. إن روما هي الهوة السحيقة التي تبتلع إنتاج المقاطعات، ومن هنا كانت مضطرة للغزو. فالاقتصاد يستند على الإنتاج بدرجة أقل من استناده على القروض المربية على حساب أهل المقاطعات، أي على النهب.

إن الروابط المتبادلة بين الفرسان وبين المزارعين الكبار العشارين من جهة والدولة من جهة ثانية، كانت تفسر المنافسات الحادة حيناً والتضامن المتين حيناً آخر، حتى أنه ليمكن القول بوجود تواطؤ بين نبلاء مجلس الشيوخ وخصومهم الأشداء.

التراث الروماني والنزعة الإنسانية العقلانية:

كيف سيكون سلوك شيشرون أمام هذه الأوضاع السياسية والاجتماعية؟ إن تعدد عناصر تلك الأوضاع يجعلنا نحس مقدماً بالمصاعب التي واجهت المؤرخ كما جابهت الخطيب. من السهل الادعاء بأن وضع شخصية تاريخية والظروف المحيطة بها وسياق حياتها، هي أمور كافية للإحاطة بمسلكها وبالايديولوجية التي تعتمدها. إلا أن الواقع يظهر عكس هذا الادعاء، فليست الأمور دائماً بهذه البساطة. إن البنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية هي عنصر أساسي للتفسير كما يرى الماركسيون، لكنه من غير المفيد أن نقصر الأمر على دراستها متى كنا أمام مذهب كبير أو مأثرة كبيرة.

في الواقع إن العقول الضعيفة وحدها تستسلم للحدية؛ أمام ما يحيط بها.

أصحاب الشخصيات المُمَيَّزَة يتصرفون بطريقة أخرى؛ إذ يطمحون إلى المسكونية من خلال الوضع الذي وضعهم فيه القَدَرْ: يريدون التوفيق في نفوسهم بين كل احتياجات البشري؛ ذلك أنهم يتمكنون منها جميعها.

نريد أن ندرس هنا؛ بعيداً عن تعلقنا بتفصيل الأحداث: الأثر الأدبي لشيشرون: الكاتب؛ والذي هو قَبْلَ كل شيء السياسي الخلقي.

فليس باستطاعتنا تفسير ذلك المذهب خارج السياق الاجتماعي، والنضال المأساوي لقنصل الكاتيلينيين Le consul des Catilinaires الذي اضطر إلى خوضه طيلة حياته.

لكننا نغلط أيضاً، إذ نقلّص ذلك فنقصره على معالمه الظرفية.

فيما يختص بشيشرون، سوف نتأمل بعمق إحدى أجمل مجهودات الفكر القديم بغية تفسير حقائق التاريخ. روما ـ طبقاتها ـ جبهاتها ـ بواسطة فلسفة عقلانية حيث الحكمة اليونانية تشكّل الأساس.

لم يقتصر شيشرون الخطيب والفيلسوف على تقبل موطنه، وزمانه؛ فهو ليس بالمحافظ البسيط، ولا بالمتكيّف الشعبي.

أراد تخطي الحواجز التي اعترضه بها مجتمع الطبقات.

فهو ليس بالنبيل، ولا حتى بالروماني من روما، ولا بالموسر على طريقة أحد الـ Grassus أو الـ Pompée، أو الـ Ploutovrates companiens.

وأيضاً لا ميل عنده للمعارك؛ هذه النوعية الخاصة من الفكر الهندسي هي التي سمحت لمعاصره ماريوس Marius؛ رجل اربينيوم d'Arpinium الكبير الآخر.

خلق مناصرين عسكريين غير نظاميين؛ وانتزاع أكبر المفاخر من موقع عالٍ من طبقة النبلاء الوراثية.

بدون غنى، ولا قراصنة ما عاد شيشرون يملك قاطبة إلا منابع فكره.

فهو ربما كان أول مفكر سياسي: يفسر على هذا الصعيد بطريقة ما ميول ومطامح طبقته: فرسان إيطاليا الإيجابيين، الوطنيين، الطّموحين.

لكن في ذات الوقت ليس بتصرفه إلا ركيزة اجتماعية ضيّقة. وهامش تحرّك محدود. فسعى لتوسيعها دون أن يستطيع ذلك إلا بتوّسع آفاق فكره.

هذا هو المناخ السياسي وخاصة المعنوي، الذي توافرلطموح، ومعطيات، وأحلام الشاب شيشرون.

بالنسبة لطموحه: نجده طبعاً في المنطلق. فهو الحصيلة المنطقية لثقافة استثنائية مدعومة بتأكيد قيمتها الحقيقية.

انهاثقافة ارستقراطية

لم يكن متوفراً للعامل، للعبد التنقيب في روما عن الوحي، وأسرار الاختصاص، وذكريات المجد التي تعيدها بالتأكيد وراء الـ agore، صورة الساحة العامة الرومانية =Forum لكن يوجد في الوقت ذاته عند شيشرون ثقافة شخصية لا متناهية من ناحية أنها مؤمّنة، ومبتكرة،

ومعاشة أكثر من تلك الموجودة بكلفة معقولة عند بعض النبلاء (اليونانيين).

ثقافة هي بحد ذاتها أيضاً مطالبة بطبقة؛ في الحدود التي تمجدّ الفرد الكريم لخوض غمار المنطلق العام.

لكن هذه المطالبة غدت عالمية لأنها تضع في خدمة قضيّتها كل مدى المعرفة البشرية.

شيشرون غدا بوضوح الناطق ضد ارستقراطية الدم التي تنزع حتى خلال هذه الفترة إلى أن تنغلق على نفسها وتتصلّب؛ حركة مشابهة تماماً لردة فعل النبلاء العائدة للحقبة الثانية من القرن الثامن عشر.

لكن المطالبة بالاستحقاق الشخصي وبالثقافة ضدّ الارستقراطية؛ ليس بأن يغدو المرء شعبياً كليّاً. إن الحزب الشعبي مثله مثل حزب الشيوخ (الأسياد)؛ موّجه حول الفئات النبيلة المتعاملة معه، بإمكانه أن يوفر مناخاً شعبياً أكثر منه ديمقراطياً.

نزعات لسلطة الفرد الواحد: Gracchus, Gaïus، أو Ginna؛ بدت في اتجاه ما، كدكتاتوريين يونانيين héllénistque مستندين إلى الطبقة الشعبية لكن مع بقائهم فوقها بالطبع. وقد نادوا في بنائهم السياسي بذات الاتجاهات التي اعتمدها أخصامهم.

شيشرون لا يميل إلا قليلاً للطبقة الشعبية. فولادته، وثقافته، وعلاقاته جعلته على اتصال مع نخبة صغيرة من الرجال المتعلمين الذين يشابهونه، ومنهم Varron ، أو Atticus، أو Sulpicius أو Caton.

حاول أن يبحث عن سبب تطور روما وتوّسعها؛ ومعنى سلطتها وقيمة تلك السلطة.

لهذا فالتمحيص والبناء النظري يدعمان دائماً إنجازات رجل العمل.

النتائج تبدو مشابهة جداً للفشل إذا نظرنا إليها من زاوية الفاعلية. لكن بإمكاننا أن نقيس من خلال ما قلنا الصعوبات الجمّة التي واجهها شيشرون.

إن جهده الكبير ليفكر وفق زمانه، وإرادته الثابتة النازعة نحو العالمية؛ ورفضه الانخراط بالجماعات المتطرفة أو بالأحزاب التي ربما فصلته عن متطلبات الوطنية الحقيقية؛ حسب ما شرحته فلسفته؛ كل هذا ضيّق من حيّز انجازاته وحدّ من إمكانيات عمله. لكن القضية التي دافع عنها حتى موته؛ لم تكن أقل نبلاً لأنها كانت تجعله متوحداً أكثر.

الأسلحة والمحاماة

يعمل المحامون بكل سهولة: مهن سياسية رائعة. فهم يحظون بإعجاب الجمهور الكبير، والدنيويين معاً؛ محببين بهم الكثير من الناس. فوضعهم كمدافعين يجعلهم مُسْتَلْطَفِين؛ وإتقانهم لفن الكلام ينسجم مع سذاجة المحلّفين، وروح الاتقان عند الأدباء واختصاصي الحقوق. وليس بمطلوب من فنهم بتاتاً الدفاع عن كل القضايا التي لا منفعة سياسية لها؛ حين يجب الاعتذار عن تغيير الرأي.

ثم ان شيشرون ليس عنده موارد أخرى لتبوّؤ العظمة. فهو ليس بالمصرفي، ولا ثروته ولا عائلته تخوّلانه الانخراط بمهنة عسكرية.

إذن في المحكمة كوّن أصدقاء له. فهو يعرف مقدّماً أنهم يتألفون من:

- الكهول المحملين بأوسمة الشرف.

٢ً ـ أناس ملء العين = فنانون، أدباء.
٣ً ـ عناصر انتخابية لها وزنها.
٤ً ـ وجهاء من الأحياء أو الإقليم.

لا يجب الهزء كثيراً؛ فهذه القائمة ليست بعديمة التقدير. فإذا كان الخطيب قد اشترى التأييد؛ فهو ليس بملزم أن ينتقيهم بعناية. لكنه رقيق الحاشية، فقير نسبياً فهو مضطر إذن للتذرع بالفضيلة.

بإمكاننا الإعجاب أيضاً بكونه بَسَطَ محاولاته السياسية أبعد من حدود روما. فلقد توّجه إلى كل إيطاليا مجرباً إحياء شعور الاجماع في الأوربس l'Urbs، كي يستند على المجموعة الحيّة من الفرسان، والعامة، بغية كسر التكتل الشديد العائد لطبقات النبلاء.

فيريس، Verrès أو واجبات المستعمر

سنة ٧٠ أصبح شيشرون قاضياً محلياً، وهذا ما يشكل الدرجة الثانية في وظائف الشرف. نشر آنئذ خمس رسائل هجاء ضدّ حاكم صقليا Sicile فيريس Verrs. كل وسائل الإجادة الكلامية التي يتقنها وضعها في خدمة هذا الإنجاز. لكن من بين كل ذلك؛ الحقيقة تشكل الحجة الأفضل.

بعض الدراسات الحديثة حاولت تبرير فيريس. هذا القاضي قد نهب صقليا ـ Sicile المعهود بإدارتها إليه لكنه تصرف في ذلك كالجميع؛ روما بأجمعها كانت متورطة ولم تكن تعيش إلا من نهب أو سرقة أقاليمها.

إن الخطيب الذي كان يكره حاكم صقليا بدا وكأنه يسقط ذلك من حسابه. ربما لم يخدم في ذلك إلا هدفه السياسي.

وبما أن فيريس قد أفسد إدارة مجلس الشيوخ لعدم كفاءته، فالعامة والفرسان الذين يعتمدون ويؤيدون بومبي لم يتركوا الفرصة هذه لكي يهاجموا هيئة الحكم الأولى فمهدوا السبيل لتغييرٍ جذري في الحياة السياسية في روما.

سنة ٧٠ أدخل قانون بومبي وAurelis Cotta الفرسان إلى المحاكم التي تراقب إدارة الأقاليم بشروط وفق الأكثرية المؤمنة لها.

ويطبيعة الحال دعي اثنان من أكبر محامـي روما للمرافعة في قضية فيريس. لقد انتصر شيشرون ضد Hortensius المدافع عن مجلس الشيوخ. بعد ذلك بقليل فإن أحد أعضاء حزبه Fonteius حاكم بلاد الغول Les gaules رزح تحت التهم ذاتها التي وُجِهَت إلى فيريس.

لكن شيشرون دافع عنه وأنقذه. هذا ما يؤدي إلى التفكير بأنه كان يهتم بالريفيين ويحقوقهم أقل مما يهتم بالسياسة الرومانية وبالنضال من أجل الحصول على السلطة.

هل يجب بالنتيجة إغلاق الفريين Verrines ؟.

ذلك يُعَدّ عدم اعتراف بفضائل البلاغة. لم نتكلم لغاية الآن إلا عن حيله وأخطائه. لكن نجد أن أحاديثه المبطنة تشكل للأبد إحدى أجمل قطع الوصف عن وضعية المُسْتَعْمَرِينْ.

تلك هي ميزة المحامين؛ يحركون كل شيء في سبيل خدمة قضيتهم، حتى تغدو هذه القضية عادلة.

لا ندري تماماً إذا كان فيريس قد أخطأ أو إذا كان الحق بجانبه.

لقد أثار شيشرون قضية عدم العدالة الرومانية أملاً في النيل منه. فعدد طويلاً الوسائل المختلفة التي عمد إلى استعمالها أو قَدِرَ على استعمالها قضاة مجلس الشيوخ كي يسحقوا مواطني البلاد المستعمرة، فأظهر كيف أحدثوا بواسطة المطالب التي فاقت الحدّ البلبلة في سير التشريعات الموجودة. أو كيف كانوا يعينون المقربين إليهم في كل مراكز القيادة؛ سواء باستعمالهم مباشرة سلطتهم في ذلك، أم بواسطة المساهمة في تحريك مطامح أهل المقاطعات.

ومَنْ مِنَ الأشخاص في هذا الإطار أبلغ تأثيراً من عشيقة فيريس، أو ممرضته ؟!

لقد وصف شيشرون أيضاً طرق فيريس:

قوانين متلاحقة كانت ذات مفعول رجعي؛ قضايا مشبوهة مثارة أمام محكمته بواسطة رجال أشبه بالدمى المتحركة بإرادته؛ عنف سرّي أو علنيّ. طيلة مدة ولايته ما من ملاحقة ضدّه. ثم انه حافظ في روماعلى حُماةٍ له قادرين يعاضدونه.

من أجل ذلك ليست الصورة العائدة لفيريس مجرد قطعة هجاء صغيرة مُجيْدَةَ التعبير؛ ليست فقط صورة رجل ما. إنما، وصف أوسع من ذلك بكثير لكل حكم يخرج عن حدود الأنظمة. إنه وصف الدكتاتور.

إن الـ Le De Signis يُظْهِرُ الرسم الزيتي المضحك العائد لهاوي فن

يضع سلطته المطلقة كقاضٍ حاكم في خدمة عاداته الغريبة كأن همه تجميع الأشياء.

من خلال وضع فيريس نَحْضَرُ هذه المأساة الأخطر ما تكون في هيكل سياسي:

إنها السلطة التشريعية الموضوعة في خدمة الأهواء. كذلك عندما خَرَقَ فيريس دين المدن: لم يكن بَخْسُه لقَدْرِ الدِيْن هو المشكوّ منه وحسب: بل أصاب كذلك الاحترام الذي كان يجب أن يكنّه لايديولوجية الشعوب الخاضعة لروما. إن رابطة السيد والمسود الموجودة بين روما وبين الأمم التي أخضعتها هي الموضوع المطلوب فيه الولاء La fides. هذه الملاحظة تتيح لنا أن نتبين هزالاً واضحاً في الفرنيات Les Verrines. ذلك أن رسائل الهجاء التي تحلل تحليلاً كاملاً عيوب الاستعمار الروماني بشكل عام، تبدو وكأنها تلقي بكامل التبعة على رجل واحد أو هيئة واحدة أعد ليكون كبشاً للمحرقة. فمن الناشز أن لا يواجه شيشرون أي إصلاح وأن يمتنع عن الحكم على بعض عيوب العشارين الذين هم أولى بالاتهام من المتهم الذي حشره شيشرون وتفرغ لمهاجمة مساوىء فيريس Verrès الشخصية.

ولا بد من أجوبة ؟ أولها أنه يحتمل خضوع شيشرون في هذا المجال لموجبات سياسية قضت بإثقال كاهل خصم ناهز خريفه. وليس هذا الجواب كافياً وحده، فثمة فكرة عامة تتصاعد من الفرنيات ليرن صداها في ما بعد في رسالة إلى كنتوس Quintus، ولتستحوذ على نشاط الخطيب عندما يصبح نفسه حاكماً على سيليسيا في عام ٥٠. إنها انطباع حول أخلاقيات السلطة المطلقة التي يمكن فهمها من زاويتين: فهي حق،

وهي واجب، وهي ممارسة لامتياز وهي إعمال لمبدأ أعلى حقيقي، أي أخلاقي.

إن هذا التفسير يبدو اليوم مبتذلاً، بينما لم يكن كذلك في روما، وعندما قال شيشرون بأن الحاكم ملزم بتأمين السعادة للمحكومين، فإنه كان يحل التبادل الأخلاقي محل التعامل العنيف. لقد بدل النظرية الرومانية في السلطة تبديلاً كاملاً معتمداً على العقل. ولا ننكر مع ذلك التراث القديم الذي دعمته أمثلة فابريشيوس Fabrieius أو كاتون القديم Caton L'Ancien، هذا التراث الذي كان يؤكد على الالتزام بالمروءة المطلقة في التعامل مع أهل المقاطعات. كما أن تأثير الفلاسفة كان مبكراً في ظهوره، ولعل ذلك يوضح كيف أن عدداً من خطب كايوس كراكوس Caīus Cracchus كانت بمثابة نموذج للفرنيات. إلا أن السلطة في المقاطعات قد اعتبرت في زمن شيشرون ومن قبل ولاة كثر، باباً للإثراء ولإشباع المنفعة الحقيقية الوحيدة من خلال الوظائف. وكان القانون يسمح ويتيح، خاصة وأنه خوّل الولاة فرض أنواع من الضرائب الشخصية وتلقي هدايا ضخمة من المدن. لقد كانوا رجالاً رسميين وهذا ما شكل امتيازاً لهم. أما شيشرون، فعلى النقيض، إذ عندما دخل سيليسيا طلب من المدن أن تخصص الأموال التي ستقدمها له لتسديد ديونها بدلاً من تقديمها له، فأيقظ بهذا التعصب للشعب غفوة المدن ونبهها إلى ما كانت فيه، وأعلن أمامها أنه يرفض أي امتياز وأنه ينحني بنفسه أمام قواعد الشرعية والتجرد قبل أن يفرض تلك القواعد على المدن. أمثولة عظيمة نضحت بها الفرنيات التي استلهمت الفلسفة فألزمت رجل الدولة بذات القواعد الأخلاقية التي ألزمت بها الرجل

العادي. لم يكن الأمر إذن حركة خطابية وحسب، فعندما كان شيشرون يستهل مرافعته قائلاً بأعلى صوته: «لسوف أحمي الفضيلة، ولألتزمن إذن بهجر الرذيلة»، إنما كان يؤكد، وفاقاً مع أفلاطون، أن النظام السياسي ليس كافياً في ذاته وليس بقادر على أن يجد تبريراً وتعليلاً له إلا في الانطباع الخلقي الذي يمكن أن يشيعه. فالمسألة ليست مسألة التعارض الساذج بين الحقوق والواجبات، بل إنها مسألة الفكرة الأعمق التي تقول بوحدة القانون الذي ينبغي أن يفرض على المستعمِرين قبل غيرهم. فالصقليون الذين أرهقهم فيريس Verrès كانوا من أصل يوناني، جعلت منهم ثقافتهم شهوداً على ما في المرء من ميول أكثر من ميله المسكوني. فبدون إعمال هذا المثال، لم تكن روما الفتية الفاتحة بقادرة على التكفير عن قواتها وانتصاراتها. هذا هو مغزى الفرنيات. لقد كان شرف روما في الميزان وكانت حكمتها كذلك تنتظر أي حوار مع اليونان، في مسألة الصقليين. ولمس شيشرون أن محتقري هذا الحوار كثر، لكنه بقي من بين الذين يعتبرونه ضرورياً.

ولم يكن ذلك أمراً عظيماً، إنه ليس أكثر من دعوة إلى الفضيلة. لكنه يغدو أثمن فيما لو أضيفت إليه فكرة متبحرة في حقيقة الفضيلة. ألا نحسب أن شيشرون كان يدعو إما إلى الحكمة وإما إلى الخبث؟ إذ ليس من الصعب أن نصف رأي حزبه بالفضيلة. لكن ذلك قد يحيد عن الطاعة وقد يؤدي إلى التخلي عن الاستقلال أي عن السمو الحقيقي، وهذا ما كان يحذره ويجتنبه كاتب الكاتيلينيين Les Catilinaires.

إن الفرنيات Verrines قد جلت حقيقة خطرة؛ ألا وهي : أنه بدون إصلاح خلقي فليس لدستور روما التقليدي أي حظ بالديمومة. لكن شيشرون بخبرته العميقة بالبشر: عقد الكثير من الآمال على تبدّل العادات. وكان يشعر بضرورة تجديد السلطة في روما. فالخطب ضد فيريس يمكن إدراجها في المسير الطبيعي العائد للدستور الروماني. والغراك Gracques، والكاتون القديم: حافظوا على النهج ذاته.

لكن سنة ٦٦ تغيّر التوازن السياسي في روما بصورة خطيرة. فقوى الفوضى أتت رويداً رويداً على الاستقرار الواهي. وبعض الشعبيين Populares استسلموا لإغراءات العنف والتطرّف الاجتماعي. وفي الوقت ذاته اتخذت الحروب الإقليمية ضد ميتريدات Mithridate طابع الدوام. وذرّ عدم الوفاق قرنه بين القواد والتجار الرومانيين وتاق العديد من الناس إلى السلطة التي غابت، ففضلوا قبضة رجل واحد مقابل توازن السلطات الذي مارسه بوليب Polybe.

وابتدأ خطر الطغيان العسكري يرتسم في أفق المدينة. فالمؤسسات والنصائح لم تعد تكفي للوقاية من هذا الانحراف المدمن؛ الذي اشتكى منه الفلاسفة القدامى سواء بين المنطق الثوري، وبين تحكيم السلطة المطلقة.

شيشرون وهو الأخير: حاول أن يمحو هذا التحرّك. فارتكز أولاً على بومبي Pompée.

آنئذ ظهر هذا القائد الباهر منذ ثورة سيلاّ Syllanienne كممثل

للفرسان، وكأحد الوجوه الصافية الأكثر إنسانية في روما؛ فلم يكن لغيره مثل هالته.

أعلن شيشرون قبل أربع سنوات من مؤامرة كاتيلينا Catilina خطابه السياسي الكبير المؤيّد لقانون مانيليا La loi de Manilia حيث نصح بواسطته أن تُحصر السلطات العسكرية الواسعة بين يدي بومبي Pompée؛ كي ينتهي من ميتردات Mithridate؛ ولبسط السلطة الرومانية على كل شرق المتوسط.

كان ترشيح بومبي مدعوماً في آسيا من قِبَل العامة؛ أما في روما فمن قِبَل الفرسان. لقد كان ترشيحه يُخِيْف العائلات الحاكمة؛ التي كانت تخشى فتح الطريق لدكتاتورية· عسكرية جديدة شبيهة بتلك العائدة لسيلاّ Sylla فمن أجل اقتناع المواطنين أصرّ شيشرون على إبراز المخاطر، التي تهدد روما بفعل الحرب الاستعمارية؛ مؤكداً على تمتع المرشح بالمواهب العسكرية. لكننا نلمس لهجة الاعتبارات التي تنمّ عن تفكير متقدم حول المتطلبات السياسية الرومانية.

بالتأكيد بدا حظ بومبي وكأنه معد من قبل الآلهة. خاصة وأن هذا القائد حكيم، فلن يسيىء استخدام السلطة ولن يستغلّ هذه السلطة التي يجب إناطتها به، لا ضدّ أعداء روما، ولا ضد القوانين أو مجلس الشيوخ.

لقد تلقى سلطات واسعة؛ لكن هذه السلطات أُعْطِيَتْ له بموافقة المواطنين الكليّة؛ ذلك أن أعداءه أنفسهم يعترفون باعتداله وفضائله.

إن اتفاق المواطنين والتفافهم حوله اتفاق تدعمه الحكمة والفضيلة

يشكل ركيزة الديمقراطية الحقيقية ذاتها.

عندما يؤيد شيشرون بومبي: يضع أو يرسم ملامح شخصيّته هو. فالمدينة التي كان يقيم فيها مريضة، والمؤسسات التقليدية لم تكن كافية لحفظها لذا وجب مجيء سلطة فاضلة مدعومة أو مؤمنة برضى المواطنين بها لكي تحميهم.

القنصل ضد كاتيلينا

انْتُخِبَ شيشرون سنة ٦٣ بإجماع المواطنين لشغل مركز القضاء الأعلى في القنصلية. أما بومبي فكان يحارب في آسيا: فمن يحمي في ذلك الحين روما من روما ذاتها ؟!.

إنه أحد منافسي شيشرون التعساء وكان يدعى كاتيلينا. ويريد أن يحصل بالعنف على السلطة التي لم يطلها بالقانون. وثار التساؤل عن حقيقة مدى هذه المؤامرة التي نجا منها القنصل المنتخب؛ والتي أولاها دائماً الكثير من الأهمية. إنها تضفي طابعاً جريئاً، مثيراً للنقمة، ضرورياً: على ترشيحه، ونجاحه، وأخيراً على سير ولايته. فكان ذلك حسب اعتراف الخصوم أنفسهم أمثال سالوست Salluste نجاحاً كبيراً في لحظة من الزمن بدأ فيها مجرى التاريخ ملتقياً بصورة وثيقة مع مجرى حياة رجل.

كان شيشرون قنصلاً؛ وها هما كاتون Caton، وسيزار Cisar؛ ممثلا المأساة المصيرية، التي دفعت الجمهورية بعد ذلك بثلاثة عشر عاماً إلى الرحيل.

إن مؤامرة كاتيلينا Catilina سمحت بالنظر في أهم أحداث التاريخ

الروماني من صميم مصادرها وأسبابها. واستمر شيشرون دون خيلاء؛ مصراً على أهميته. كان الممثل الرئيسي للمأساة يعد نفسه بصورة رائعة لمفاعيل الإجادة. هذا السيد الكبير يبدو ممتلكاً إلى درجة قصوى: كل سبل الإغراء؛ خارج إطار المال؛ الذي كان يصرفه عن سعة بالغة.

شكلت أهواؤه، ورغبته في الحكم، والهالة العميقة التي اكتسبها قرب الشبيبة المذهبة وعلى وجه التفضيل غير المذهبة؛ نوعاً من النموذج الذي استقى منه جول سيزار Jules-César المرتبط به حينها بصداقة حذرة؛ ذلك الأغنى والأحذر، والأكثر صفاء؛ الذي هو قليل الافتتان بتجمّع الدسيبرادو désperados حول كاتيلينا.

في الواقع انه ليس من الشعبيين المحنكين، الصارمين الذين اتخذوا الغراك Gracques كنموذج لهم. فهو على وجه التفضيل زعيم ثوري، متآمر، يتطلع إلى ركوب موجة الأقليّة الثورية من أجل اغتصاب السلطة بالعنف في مدينة سلبيّة. فأحاط نفسه بنتيجة ذلك: بالشبيبة المقبلين على الحياة وبالمدنيين، وبطموحين خائبين، وبقراصنة أخساء وبمفكرين سيئين، منبوذين من قِبَل الأخلاق الشعبية. وكأنه يهيء حريق روما علناً. وقد اقتنع بأن، القلة الحاكمة لن تجد أحداً للدفاع عنها. وأن البعض منهم، خاصة الشعبيين، سوف يغدون ضالعين معه، فيتركونه يذبح قنصلاً ما كان محبوباً.

هذه المؤامرة هي ذات مفعول أدبي شديد الروعة.

كان يلزم ريشة فلورنسي من Guattrocento لرسم كل هؤلاء التلاميذ المبتدئين الحرفيين (Condottieri) كبيري قوالي الشعر،

والراقصين الرشيقين الذين يخفون خناجر تحت ثياب رقصهم الداخلية، ويؤلفون قطع الهجاء وهم يحلمون بحرق روما. لكنه يجب قياس القوى الموجودة في هذا الجو.

وجد شيشرون نفسه بعد أن سُدَتْ السبل في وجهه مضطراً لتجربة كل حظوظه؛ وإلا ترك المتآمرين يتصرفون. حينئذٍ شكلت الثورة كرة ثلجية جرفت الشعبيين وقائديهم الحقيقين قيصر وكراسيوس Grassus. فسقطت الجمهورية دون أن يفعل مجلس الشيوخ المتردد شيئاً للاعتراض على ذلك. فكان عليه أما أن يخاطر بالتصرف: أي بأن يخوض غمار نضال لا مفر من دمويته، ليجتذب حينها النقمات التي يعرف جيداً أنها سوف تكون غير محمودة العواقب متوقف عن كونه رجل الإجماع، وغدا للجميع كبش محرقة.

أما الذين توخى انقاذهم فكانو يضنون بالعرفان عليه. فكان من المغري، لا بل من المفتخر به: العثور على شخص جديد لمهمة غير شعبية.

هذه الترددات، وهذه الحجة المتناقضة الافتراضات قد أحسّها شيشرون. بكلمة واحدة سالوست Salluste أشار إلى ذلك. ويمكننا العثور عليها أيضاً من خلال الأحاديث الأربعة الرائعة العائدة للكاتلينيات Catilinaires؛ حيث إن النص الذي يكاد يقرب من الكمال أعيد النظر فيه من قبل الخلف.

لذا يجب إبراز المعنى دون الرجوع إلى تفصيل الأحداث.

أولاً: المعني بالأمر مؤامرة ما. القنصل أجاد أكثر من غيره، فجسَّ

الجواسيس، والشرطة، وسيدات الصالونات المتآمرة أعلمنه في المساء: أنه يُوّد قتله في صباح اليوم التالي. فلجأ القنصل؛ لكي يكشف أعداءه ليس إلى الشرطة بل إلى أصدقائه، إنها الطريقة الإيطالية باختصار. يتطاعنون بالخناجر ولا يملون ولا يكتئبون.

لكن هنالك أبعد من كل هذه المظاهر الرومانسية: لعبة سياسية يجب أن نستجليها.

في النتيجة خطة شيشرون هي التالية:

انقلاب من قِبَل الأقلية لا يمكن أن ينجح إلا بمشاركة الأكثرية أو لا مبالاتها.

لذلك وجب تغيير هذه اللامبالاة، واستنفار التنبه والسَّهَر. إنها مهمة خطيب رائعة. وأطلق شعار: إلى متى كاتيلينا. وكان خطاباه الأولان نداءً للرأي العام. لقد جعل المصل من نفسه وسيلة إعلام فأشار سلفاً إلى المؤامرة ومنذ ذلك الحين قرب دهاؤه العامة إليه؛ فوجد كاتيلينا نفسه وحيداً.

إن مقدرة رجل واحد قد نجحت في رد بعض الثبات للأكثرية؛ ولتشكيل قوة من هذه المتناقضات الهائلة من الأكاذيب والعزائم المحبطة.

وما كانت المهمة هينة؛ فالشعبيون أدركوا سلفاً عمل شيشرون. فحاولوا سحق هالته باقتراح إجراءات غوغائية مناطة بالجماعة، قانون زراعي وجب على القنصل محاربته للحفاظ على السلام المدني.

واستغل هذه الفرصة ليتكلم إلى الشعب في عملية جريئة لم يكن يلجأ إليها القناصل في العادة؛ لكن بلاغة سحرية كما كان يقول Plutarque وQuintilien تفعل الكثير. وبذلك لم تطلع سلة شيشرون فارغة من البيض الجيد.

الحق يُقال: خاطب شيشرون العقل بواسطة السحر وأعلن للشعب أنه أراد تنويره كما فعل Périclés؛ وصدّقه الشعب.

في ذات الوقت الذي اتخذ خلاله موقف مبشر مبتكر كان على شيشرون أن يواجه مزاج مجلس الشيوخ المعتكر فشجع ترشيح الجنرال مارينا أحد أصدقائه البومبيانيين لمنصب القنصلية. لكن حزب مجلس الشيوخ الملّتف حول كاتون لم يتعظ من سقوط القانوني Sulpicius؛ الواسع الحيلة الذي أراد إفساد هذه الانتخابات لكن هذه الانقسامات خدمت فعلاً لعبة كاتيلينا؛ الذي بعد أن ترك روما بقي يغذي المؤامرة من بعيد.

رافع شيشرون بجانب Morena ضد كاتون Caton.

هذا الحوار يشكل أحد الأوقات المثلى لهذه الحقبة غير العادية، أخذ الخطيب الكلمة وهو يبتسم؛ فتكلم بهدوء شديد؛ وانتقد عند خصومه صرامة قصوى نسبها إلى رواقيتهم. من ناحيته كان يخاطب أيضاً الفلسفة؛ لكن حكمته اصطدمت بالغوغاء. فهذا الأخير يخلط بين مختلف الأخطاء. بالعكس الفكر المرن يتقبل بعض الأغلاط شرط أن تكون هادفة للبحث عن الخير.

لقد ثار نقاش حاد حول الطرق التي يتبعها رجل العمل والنشاط.

حيث أشار كاتون إلى التكيّف والتحبب؛ تكلم شيشرون عن التسامح. أو بالأصح عن روح الدقة التي تميّز القيم الحقيقية. ثم وفي ذات مساء من كانون الأول كُشِفَ القناع من قبل شيشرون عن المتآمرين المنضوين تحت قيادة واحد من أكبر القضاة الحكام في المدينة ، القاضي الروماني Lentulus. فكان يجب تقرير مصيرهم. ذلك الوضع لم يكن مشاراً إليه في القانون؛ فاستشار القنصل مجلس الشيوخ: جلسة درامية رافع خلالها قيصر في سبيل الترفق بهم معللاً بتعابير منتقاة بأن ذلك يشكل أقسى عقاب يُنْزَلُ بالضمائر المذنبة. لكن كاتون أجاب مطالباً بالموت؛ فَسُمِعَ له.

شيشرون رافع أيضاً في صف الموت دون أن يزجّ نفسه في العمق. فما كان يريد أن يبدو إلا كمنفذّ لمقررات مجلس الشيوخ. كان يريد في كل هذا المضمار أن يبقى داخل روما شبيهاً ببومبي خارجها، أي المنقذ. لم تكن تُفَرِقُ بينهما غير الإمكانيات. إنه قنصل وليس مجرد قائد لـذا أراد أن ينتصر برداء المحاماة أو بالأحرى بواسطة القانون. إن كلمته التي وحدّت الرأي هي التي خلقت الإجماع ضد كاتيلينا. لكن هذا النصر الذي أُحْرِزَ بسلاح الفكر لم ينهِ على الأقل نضالاً؛ فكانت الحرب السياسية تتطلب أحياناً اللجوء إلى العنف. بعض الحلول المطابقة للقانون Sénatus consulte ultime، سمحت هكذا للقناصل بأن يضعوا أنفسهم في بعض الظروف الخطيرة فوق القانون.

وقد استوحاها شيشرون في الكاتيلينات Catilinaires. لكن كل مجهوده الايديولوجي نزع لتبرير استغلال السلطة؛ وبالوقت ذاته استفاد منه في تمكين الشعب من مُراقبته فقد أعلن مثلاً: أن الـ Sénatus

هو كالسيف في غمده. أراد جعل ذلك وسيلة consulte ultime إرهاب. خاصة وأنه بررها بثقة الشعب. بالنتيجة اتخذ لحسابه كل الحجج التي استعملها لصالح بومبي. والذي غدا بفضل المؤامرة منقذاً بدوره لروما. كأني به يجابه نوعاً من اقتسام الحكم: هو يغدو المدني Togatus أو بالأحرى الرجل اللابس رداء المحاماة؛ فيحفظ متجرداً الوحدة والشرعية في الجمهورية. في هذه الأثناء أمن بومبي السلام بخوضه عدة معارك لا سابقة لإتساع حيّزها وأعطى روما كل حوض البحر الأبيض المتوسط.

هذا الدور الذي شاءته القدرة أُنيطَ بشيشرون كما ببومبي بموافقة الشعب بأجمعه، أو على الأقل من قبل تلك الأكثرية الفاعلة التي تشكل النخبة من الناس؛ الشيوخ والفرسان. هذا التدخل من قبل السلك الثاني في قرارات الحكم: كان سابقة جديدة (فكرة الهيمنة الكبرى).

بعد ذلك أعطى شيشرون من خلال رؤيته السياسية؛ معنى فلسفياً أكثر تفصيلاً، كان قد كشف عنه بالعمل. فحين حُمِلَ ذات مساء من كانون الأول بعد جلسة مجلس الشيوخ إلى الكابتيول Capitole لكي يعطي الأمر بالقضاء على المتآمرين، وما أن همّ بالخروج حتى قذف بوجه أصدقائهم القلقين هذه الكلمة الوحيدة: لقد عاشوا: Vixerunt. فأحاط به الفرسان المتشقو الأسلحة؛ وحاملو المشاعل وهم يهتفون له. ويشكلون حوله حاشية مرافقة له. كل حياته بقيت تحمل علامة تلك الذكرى المنتصرة والمرّة معاً فهو لن يفتأ يتذكر أن ضرب الذكاء الجيد المسوّي للأمور إنما يعود إليه. لكنه كان يدرك في أية ظروف دموية قد حصل ذلك. فعندما كان ينزل على الطريق المقدّسة بين المشاعل

والسيوف لا شك بأنه كان يرى قدره أمامه كسر أو بالأحرى كلغز. صحيح أنه انقذ الجمهورية. لكن ربما هذا المساء بالذات ماتت الجمهورية لأنها كانت متعلقة في رجل واحد.

التأمل في الحرية

كان مبنى الكابيتول (البرلمان) قريباً أحياناً من الصخرة الترابينية . . Trapéienne . لقد تحاشى شيشرون النهاية فوقها. لكنه سنة ٥٨ اضطّر للهرب من روما: فلا مجلس الشيوخ ولا بومبي حمياه من هجمات الحزب الشعبي الذي اتهمه بقتل المتمردين: فاضطرّ للمكوث في المنفى مدة سنة.

قاد قيصر الحزب مستنداً على ثروة كل من Licinus و Grassus التي تخوّل الحكم والقيادة للأغنياء. هكذا انعقد التحالف بين القوى الحقيقية، والاسلحة، والمال، وبعض الحركات الشعبية ضد المنظمات الرسمية.

كان شيشرون يعرف نقاط ضعف الجمهورية التقليدية: فلم يكن في ذلك أقل ذكاء من قيصر، ثمة علاقات غريبة تدور بين ذينك الرجلين.

فالحوار المبطّن لن ينتهي إلا عند موت أحدهما الذي لن يطول بعده موت الآخر. والتقدير المتبادل بينهما كان كبيراً: فكل منهما لمس لدى الثاني فطنة، وثقافة جديرة بشخصه. لكن سيزار كان ابن فينوس Vénus السيد الكبير المتحدّر من الآلهة: فلم يكن يستطيع النظر إلى أبن اربينيوم Arpinium إلا من علٍ. هذا القائد، البهيّ، المشهور بانتصاراته، واناقته: لا مطمح عنده يشتهيه سوى: السلطة المطلقة. شيشرون اعترضه بالحرية التقليدية مع علمه بأنها كانت نسبيّة. أتراه كان يريد تغييرها نحو الاحسن لكي يدعمها أكثر؟.

لكن عند عودته من المنفى شعر الخطيب سريعاً بضعفه: ومنذ ذلك الحين كان يستشار أحياناً: لكنه لم يعد يتحكّم بالاحداث. لقد شعر برغبة في العزلة، والراحة تراوده: لكنه لم يستسلم لها: اراد أن يُجابه بعد ويرسي مثاله. سنة ٥٦ وفي خطاب شهير Le Pro — Sestio : أعلن شيشرون أنه يرفض التقاعد إذا كانت الكرامة غير مقرونة، وبقول آخر، بالشرف الذي يتطلب التضحية بكل شيء في سبيل الحرية. فالخطيب أضاف أن الجمهورية مُهَاجَمَةٌ أكثر مما هي مُدَافعٌ عنها. لقد سخر بعضهم من حب الراحة هذا: لكن ذلك لم يكن بالمثل السيّىء للحكم. فعند امتداحه، بالشرف، أدخل شيشرون على الحياة السياسية الرومانية بعض المعاني العائدة للفلسفة اليونانية. أو ليست الراحة ضرورية للتأمل: الذي بدونه: كل سعادة حقيقية تبدو مستحيلة في المدينة كما في كل فكر؟! وراح شيشرون المصدوم والمجروح يبحث منذ ذلك الحين عن وفاق صعب بين العمل والتأمل. فرفضه باسم الشرف وترك روما لقدرها: راح يتأمل حول متطلبات الحكمة، في سبيل تأمين راحته الخاصة.

ـ إلهام روما الأمثل ـ

في هذه الظروف أنضج شيشرون طيلة ثلاث سنوات متعاقبة: من سنة ٥٤ حتى ٥١: أحسن إنجازاته:

ـ عن الخطيب De L'orateur ـ عن الجمهورية De la république, ـعن القوانين Des lois ـأي: من زاوية القياس الزمني بدأ شيشرون وكأنه قد ابتدأ ابتداء غريباً بما يمكن أن نسميه الفلسفة الاخلاقية في مؤلفه الخطيب De Oratore . أما الفلسفة التاريخية، والفلسفة السياسية ففي مؤلفه الجمهورية De republica والفلسفة القانونية في مؤلفه... De legibus ـلكننا نلاحظ عند قراءة أعماله أنها تفترض فلسفة عامة من المنطق، والماورائيات وحتى الفقه بحيث تغدو هذه كتطبيق لها. نحن نعرف من ناحية أخرى. من خلال دراسة المصادر، أن شيشرون الذي اتّبع فلسفة مُحْتَرِفَةْ أصبح البحث فيها عن الحكمة الغاية القصوى. ثم توقف بين السنوات ٥٤ـ ٥١ عن اختباراته النظرية الاساسية. فلن نجد مبادئه البديهية معبّراً عنها إلا في أواخر حياته: عندما حزّت في نفسه مرارة خيباته السياسية حتى التي منىّ النفس فيها بوهم من القدرة في الاشهر الأخيرة: التي أجبرته على التطلّع ناحية الموت.

وبالتالي فمن الخطل التصديق أن محاولة شيشرون، كانت نوعاً من التحرر السياسي، وتحليقاً نحو الفلسفة العليا.

ولنر العكس تماماً. فمن خلال مفهومه للعالم، والفلسفة، توّصل إلى السياسة.

إنها حصيلة الخبرة السياسية، واليأس المستفحل تجاه أزمة روما. أمام فشل محاولاته الشخصية لتأخير الخاتمة:

المراسلة النادرة العائدة لهذه السنوات تشعرنا بتدّرج زمني بين الأمل واليأس. لكن السياسة بالنسبة لشيشرون تبقى مشكلة أخلاقية، وشخصية ودائمة:

إنها طريقة لإثبات فلسفته وتجسيدها.

فمؤَلّفُه الجمهورية De republica يمثّل تجديداً لمحاولة افلاطون. لكن من وجهة نظر معاكسة إلى حد ما.

بالنسبة لأفلاطون Platon الافلاطون الجماعي السلطوي، الذي يتصوّر مدينة بلا انحلال لا يُنْفىَ منها هوميروس Homere . فإن الغاية القصوى تبقى حوار الرجل مع نفسه، أي مع الله والعدالة الحميمة، العدالة في المدينة ليست إلا بالنتيجة: التدخلات التي من خلالها يتحقق هذا الزهد. إن عودة الحكيم إلى الأرض لا تتم إلا بالتسويات.

كل سفر إلى Syracuse ـ هو سقوط. وإنه لوهم بأننا نستطيع أن نعمل من دينيز Denys أفلاطوناً.

إن المجتمع المثالي والجمهورية عند الفرز هما في ضمير التاريخ لأنهما لا يكونان ممكنين إلا حين يبلغ كل إنسان درجة عالية من الحكمة.

في التاريخ نجد نفسنا مرتدين من هذا التصور إلى الموقف السقراطي حيث الخضوع الظاهري للقوانين، وحيث التثقيف الدائم.

بالطبع أن أفلاطون اقرب إلى سقراط منه إلى جورجياس Georgias

المشكك. وخاصة منه إلى كاليكلس Calliclès العنيف، لكن هنالك في هذا النوع من الرفض احتقاراً للمدينة الحقيقية الواقعية لم يشاركهم إياه شيشرون.

ومسألة المدينة الكاملة الفاضلة ليست عند شيشرون مسألة نظرية يبقى مثالياً حلها، بل هي حقيقة تاريخية: حاجة قائمة في كل لحظة. فهو لا ينسى إطلاقاً ما كان يردده أخوه سنة ٦٤: «لا تنسَ أنك في روما لا في جمهورية أفلاطون بل في مدينة روملوس الملعونة». من أجل هذا لجأ إلى طريقة مبطّنة بحيث ألقى باختبارها مرة على التاريخ الواقعي ومرة على الخيال. فألّف حواراً بين شيبيون إميليان Scipion Emilen وأصدقائه سنة ١٢٩: قبل موته بقليل.

كان ذلك من أجل إعادة العصر الذهبي للجمهورية أو بالأحرى الفترة ما بعد تبيروس كراكوس Tiberius-Cracchus وقبل الازمة الثورية الأولى. استطاع حزب «النخبة» أن يأمل بأن الأخطار قد غَيَّرَتْ وجهتها: وبأنه مع شيبيون Scipion واصدقائه سوف يكون الحكم للعقلاء الحكماء.

إن في ذلك نية لإزالة المخاوف من تمرد الشعبيين، كالمخاوف من ساتورنينوس وغلوسيا Saternis et Glucia ، والمخاوف من بسلبيسيوس Psulpicius ولبيد Lépide وكاتيلينا Catilina والحروب الأهلية.

كل يخشى أن يرى ماريوس وسيلاّ مشخصين في قيصر وبومبي.

فكتاب الجمهورية De republica هو إذن حوار عن أحسن حالات المدينة، وبالتحديد، عن أحسن مواطن وهذا هو الأهم، لقد عرف

شيشرون بذلك مفهوم عمله في رسالة. فلقد أضعنا كل أثر لكتبه الثالث، والرابع، والخامس منها: ولحسن الحظ، بقي لنا الاثنان الأولان، مع المقطع الممهد للكتاب السادس :ـ حلم شيبيون Scipion .

ـ القانون والعقل ـ

إن عالم شيشرون الاجتماعي والسياسي هو عقلاني كله. ومن المشروع طرح مسألة أفضل مدينة، فأفضل حكم، وأفضل حاكم لأن وجود المدن وتاريخ العالم، وتاريخ روما أيضاً يخضع لتدبير عقلاني: هذا التدبير هو القانون المعبر عن المصلحة العامة على صعيد المجتمع: والمعبر كذلك عن العقل القويم أي عن الله في نظر الحكيم.

فالظاهر أن العالم لا تقوده الصدفة، لأنه ينطوي على قوانين طبيعية تفسر وتبرر التاريخ. لقد دافع شيشرون عن مفهوم دقيق حيث المنفعة تقترن بالعدالة ضدّ الفلاسفة الذين يزعمون أن ضعف البشر فقط هو الذي يفسر انضواءهم في مجتمعات: وأن القوة وحدها هي التي تبقي تلك المجتمعات متماسكة بفعل الضرورة. كما أن النجاح المادي للمدن يُفَسَر بمعرفة قوانين الطبيعة (انتقاء الموقع، استخدام معطيات الجغرافيا). كذلك القوانين الموضوعة من قبل الإنسان أو بالأحرى الدساتير الموضوعة بواسطة المشرعين والمؤسسين والتغييرات المعدلة المقترحة من قبل رجال السياسة عليها أن تحسب حساب الفكر والعدالة. فمن المشروع إذن أن يُهْتَم بالسياسة، ومن الممكن أن يتكلم عنها عقلانياً.

علم السياسة يجب أن يشرع به ليس بعد إصلاح الأفراد، ولكن في

حينه وأن يجري تطبيقه دائمًا، وبعد ذلك تتحقق مشيئة (Consilium) الحكمة الألهية. وهكذا فالطبيعة ليست مناقضة للقانون: مناقضة الحرية للضرورة، كما يرى شيشرون.

والقانون البشري إذا كان عادلاً فهو مطابق للقانون الطبيعي. لقد نبذ شيشرون الاخلاقيات التي تنسب كل شيء للمنفعة وتتعصب لها، سواء منفعة الأفراد أم الأمم، يذكرنا ذلك بمناظرات الفلاسفة الرواقيين حول العلاقات بين النافع والشريف من الأمور. هل يتوجب علينا التضحية بسلامتنا في سبيل العدالة ؟!. لقد بيّن أن العدالة ليست حدّاً أخلاقياً وحسب، بل إنها دائماً مطابقة للصالح العام كذلك.

ـ عظمة الدستور الروماني ـ

إن المناقشات الأولية (التي في الواقع تتابع على مختلف أصعدة الحوار) قد ربطت مسألة الجمهورية من جهة: بالماورائيات، ومن جهة أخرى بالأخلاقيات. (وبعكس أفلاطون) فبينما يجب البحث عن حل هذه المسألة في التاريخ فإن وضع روما الخاص هو الذي سوف يبقى صاحب الامتياز.

إن روما هي العالم (ولا يمكننا أن ننفي الاستعمار كواقع) وليس هذا القول اعتباطياً أبداً. لكن ذلك هو النجاح الاستثنائي في التاريخ أحرزه شعب حمل بصورة أكيدة بركة الآلهة.

من خلال المقياس المعروض: حققت روما مقصداً تاريخياً خاصاً، فكانت أهلًا للنجاح. هذا الرأي مدعوم بعدد من الحجج الثانوية: كفضيلة أبطالها، ومحبة مواطنيها الخاصة لها.

لقد كانت لها حكمة وضع القوانين رويداً، رويداً (لنفكر بتعاقب ملوكها، ورؤساء جمهورياتها الأوائل). مستفيدين من خبرات الأجيال المتعاقبة، ومن تقدّم القانون، وحتى من الأمثال الأجنبية (Corinthe, Athène) كأثيناوكورنثيا. لكن هنالك أسباباً اساسية عديدة. فللدستور روما صفات خاصة تفسر وتبرر نجاح هذا الدستور.

روما هي كذلك أفضل مدينة عرفت. فطبيعتها هي جيدة بكل ما فيها ولا ينقصها للكمال إلا العودة إلى تلك الطبيعة.

لقد كانت منذ بوليب Polybe مكاناً جامعياً للتغنيّ بالفضائل العُظمى للدساتير المختلطة حيث تعطي احسن مثال على تلك الدساتير.

لقد بينّ أرسطو Aristote إنه في الدساتير البسيطة: (حكم الفرد وحكم الأقلية وحكم الشعب) كان الدور الطبيعي للأهواء هو الوصول بانتظام إلى تعطيل السلطة (حيث ان حكم الملكية الفردية يؤدي إلى الطغيان).

إن التوازن الطبيعي من شأنه أن يؤدي إلى الثورات المضادة التي تهدم الدول. إن روما محميّة من هذا الخطر لأن الاتجاهات العديدة فيها متوازنة وهذا أمر تحسد عليه. فالسلطة الفردية الممنوحة للقناصل يحدها مجلس الشيوخ، والنزعات الغوغائية للجمعيات الانتخابية محتواة من قبل القضاة الحكام...

لقد اجتهد شيبيون Scipion بالنتيجة ليظهر أن مؤسسات روما هي الاكثر أهلية للتوفيق بين العدالة والمنطق.

لكن هذا المفهوم للتوازن الدستوري يُخْشى عليه كثيراً بأن يكون انتصاراً للتجريبيـة. ذلك أن نظرة متشائمة تظهره وكأنه ليس أكثر من سوء.

هلْ ثمة حقاً عدالة، أم هو الاستقرار الواهي الناتج عن الصدفة؟. ذلـك ما يقـودنا إلى التفكـير في خـطاب كـاليكلس Calliclés في الجورجياس، Gorgeas : «كل ما هو من الطبيعة ضروري وكل ما هو من القانون ممكن الحصول». يُسْتَنْتَج من ذلك أن القوة هي التي تنتج القانون وتحدد العدالة. في هذا المفهوم الذي يكاد يغري المتشائمين نرى كلاً يلعب دوره الخاص. فالأفراد والأقوياء يطمحون إلى السلطة والشعب يحاول انتزاع الرفاه والمكاسب ومجلس الشيوخ يرنو إلى كسب الامتيازات. هناك توازن بالتأكيد: لكن السياسة هي نضال une Con-tentio بمنظور الكفاح المتواصل.

والمشككون امثال Carnéade كارنياد اهتموا بالطابع التعاقدي الهزيل للقانون لدى الرواقيين. فعندما اتى سنة ١٥٥ إلى روما من أجل القاء محاضرات حول هذا الموضوع، أحدث ردة فعل هائلة. إنه أمر يسير فهمه.

إن اعتماد الصدفة هذا قد حرم المدينة من كل إلهام Vocation فإذا كانت القوانين ناتجة بفعل الظروف: فإن كل الثورات أمست مباحة. وفي محيط رجال الدولة عودة دائمة إلى هذه المناقشة حول العدالة؟!. لقد كانت في صالح شيبيون وأصدقائه في كتاب الجمهورية. أما فيلوس فيتذكر من هذا المنطلق المنفعي والمرتبط بالاعتراف بالقوة القاهرة:

«إن الجميع افراداً وطبقات اجتماعية يحذر بعضهم بعضاً بصورة متبادلة . لا احد يثق بنفسه . من هنا تنبثق الرابطة الاجتماعية فبنتيجة الأمر ليست الطبيعة ولا الإرادة هما اللتان توّلدان العدالة لكن ما يوّلدها هو ضعف البشر».

هذا المفهوم الذي تغذيه خلفية فلسفية يشبه كثيراً المفهوم الذي تبناه الفقهاء الشعبيون Populares في زمن شيشرون. فعند سالوست Sal-luste مثلاً وربما عند قيصر: نرى الصالح العام يبدو جلياً في أساس التاريخ وخلف وقائعه. والصراعآت بين النبلاء والشعب، بين مجلس الشيوخ والخطباء الشعبيين هي بالنسبة إليهم صراعات بلا قانون حيث المهم أن يكون المرء منتصراً وحسب.

ـ العدالة تكمن في الوفاق :

لم يكتف شيشرون بهذا المستوى من التحليل والعمل . فمؤلفه عن الجمهورية De republica ما هو إلا جهد مبذول لعقلنة السياسة في روما وجعلها منسجمة مع الأخلاق . يجب استغلال هذا التوازن غير المستقرّ بين الامتيازات والمصالح : وتحوّيله إلى دستور حقيقي متناغم . ولسوف يكون ذلك الوفاق ـ La concordia ـ.

على صعيد السياسة : لقد رأينا سابقاً بأنها ليست تحالفاً تكتيكياً بسيطاً، ولن تكون توازناً نظرياً وحسب بل يجب أن يعطى كلّ حَقَّهُ لذلك وحسب المقارنة الأفلاطونية التي استخدمها شيشرون، فكما أن الانسجام يتناغم في الغرفة الموسيقية منطلقاً من جهات مختلفة من

النبرات المتناقضة، والأغاني كذلك في المدينـة فإن رابطة المصلحة العامة تطلق تناغمًا مماثلاً هو الوفاق.

وهذا الوفاق ليس باستطاعته الاستمرار إلا بالعدالة وبواسطتها . وليس من المفروض بالنتيجة الحصول على علاقات قوة . بل يجب إيجاد عدالة توازن الحقوق والواجبات والوظائف العائدة لكل فرد . لقد حدد شيشرون هذا المفهوم مطوّلاً فقال بان للقضاة الحكم Potestas ولمجلس الشيوخ السلطة Autoritas إنه نوع من التثقيف الاخلاقي مرتكز على الفضيلة. وللشعب الحرية؛ التي يفسرها شيشرون بأنها تتمثل بحرية اختيار الحكام من قبل الشعب. إذا قبل كل بتلك العدالة: فان دستور روما سيغدو ساري المفعول.

ولم يكن مستغرباً بروز اتجاه كهذا في الفكر والأخلاق في ذلك العصر .

فمنذ أقل من قرن تقريباً كان رجال السياسة والقانون يطمحون لتقديم إصلاحات شاملة تغيّر في منطلقاتها من دور الدستور .

كايوس كراكوس Cauus Cracchus هو أول من أراد بطريقة صارمة إيجاد توازن بين حقوق كل واحد وواجباته . أما سيللا فتخيّل تشريعاً شاملاً للحزب المعارض واستطاع شيشرون أن (يستلهم) هذه الامنية العامة ، التي دفعت في نهاية القرن الثامن عشر : رجال القانون والبورجوازيين لكي ينظّموا الفوضى القانونية العائدة للنظام القديم .

ـ البحث عن أمير :

لكن الحوار قد استمر . فهذا الوفاق ، كما أدركه أفلاطون ، لا يمكن أن يوجد إلا إذا تجسد في رجال . إذن كل شيء عائد إلى التربية . ولمعرفة أفضل أشكال الحكم الممكنة لا بد من معرفة أفضل حاكم . هذا هو موضوع الحوار. إن جمهورية الفضيلة والوفاق هذه تحتاج إلى حَكم . ويحاول شيشرون تعريفه : إنه حاكم الدولة ومديرها باليسر والاعتدال ـ ستكون له صلاحيات القاضي الأكبر وسلطة مجلس الشيوخ المعنوية معاً ، وسيتولى تأمين العلاج الخلقي للجمهورية بحرية كما فعل شيبيون . سيكون الأمير وأول أهل المدينة .

فكيف ننمي ونثقف ونصطفي رجلاً كهذا ؟ .

ومرة أخرى يواجه شيشرون نماذج المواطنين التي أنجبها المجتمع الروماني . من سيكون الأمير هل جنرال كبير ؟ أم فقيه ؟ أم فيلسوف ؟ نعم ، على أن لا يكون هكذا وحسب . إن الأمبراطور يقود وينتصر في ميادين القتال بفضل حماية الآلهة . إلا أن شيشرون أثبت بنفسه إمكان تجاوز الأسلحة لإنقاذ الوطن . فجلالة القاضي الأكبر تكفي إذا عرف كيف يقهر بالكلمة العدو الداخلي ؛ وإن رجل القانون لا يجب أن يقيد نفسه في إطار الشكليات الحقوقية بل عليه أن يفكر في العدالة . والفيلسوف لا ينبغي أن يعتكف في اعتزال السياسة . سيكون أميراً إذن ذلك الرجل الكامل : الخطيب . لقد قدم شيشرون في مؤلفه عن « الخطيب » هذه الخلقية المسكونية وجعلها في خدمة الوطن . وليس الأمير شيئاً آخر في مؤلفه عن « الجمهورية ». حكيم ، بما فيه الكفاية ، لمعرفة قوانين إنماء المدن ، مثل الملك « نوما » أو الملك « روملوس »، يتمجد بافتخاره أنه

أنقذ الوطن ، عارفاً كيف يجعل السلاح يتراجع شأناً ، فيلسوف ، بما فيه الكفاية ، للبحث عن العدالة والسلطة كتكليف لا كحق شخصي ، لا رجعي ، ولا شعبي ، وليكونن الموفق والوسيط . هنا يتدخل غموض الخرافة الشيبيونية : شيبيون سليل أكبر العائلات ، وأبن عم الفراكيين ، صديق الفلاسفة ، وجنرال شهير ، قاهر قرطاجة ، وشيخ بصير ، كان يريد أن يدعم تيبيريوس غراكوس وأن يعارض مزايدات المتعصبين للشعب ، وقد مات شيبيون ، وربما مات اغتيالاً ، أجرى شيشرون على لسان هذه الشخصية ، في الحوار ، تنبؤاً مغموساً ببؤس الجمهورية المقبل . وبعد ؟ أكان بومبيه ذلك الأمير المطلوب والفاضل ؟ قليلاً ، دون ريب . أو كان شيشرون ؟ هذا محتمل أكثر .

لكن الوجاهة كانت تنقصه وهي في روما الأرستقراطية كانت وحدها تسمح بقبول من يقبل . ومن جهة أخرى ، فإن الأمير الأكثر فضيلة لا يقوى على شيء إذا كان منعزلاً . إذ ان الوطن محتاج إلى Consilium دائم بدونه تترك الشؤون للصدف. يجب اصطفاء أمراء بحيث لا يكون الأمير إلا الأول بين نظرائه.

بعد عشر سنين ، سيضع شيشرون خطوط تربية للمواطن الأصلح يتوجه بها توجهاً رمزياً إلى ولده (نحن في مجتمع قائم على النسب والعائلة). « الواجبات » تبين كيف أن العدالة يمكن أن تستحوذ على الفرد فتهيؤه للقيام بدور الوطني . في « الجمهورية » يمتدح شيشرون الاستفادة من النخب الموجودة . إن بوسع الارستقراطية المشيخية أن تنتج قسطها من الرجال ذوي الجدارة . ويكفي أن تنفتح وتتقبل الرجال الجدد من الوجاهة الصغيرة الإيطالية أو الريفية الداخلة بكثافة في المدينة

الرومانية منذ قانون بلوتيا-بابيريالسنة ٨٩ . فالنسبة لشيشرون ، إن روما في تطلعها إلى التفوق العالمي ينبغي لها أن تكون مسكونية لكل العالم . (ولذلك رافع شيشرون لصالح الشاعر أرخياس ولصالح كورنيليوس بالبوس في طلبهما التجنس).

ـ حب الخلود :

رغم أن النصوص ليست كافية ، فإن بوسعنا أخذ فكرة عن الهندسة الداخلية لكتاب الجمهورية . لم يغفل شيشرون مرة واحدة توجهه في البحث عن طبيعة الحكومة الفضلى ، منطلقاً دائماً من فلسفة ما . إنها العناية الإلهية التي تلهم العالم وتسمح بتنظيمه . وفي كل محاولة نظرية ، لا بد من الرجوع إلى الله . ولم يكن شيشرون قد أدلى بعد ببرهانه المطلق ضد الأبيقوريين أو الخلفاء الذين بشروا بالبحث الفردي عن الحكمة . ففتح كتاب الجمهورية الباب بترابط بديع على مذهب سلام . ومن حسن الحظ أن يبقى لنا من الكتاب السادس النص الأكثف والأروع : مغزى حلم شيبيون . شيبيون إميليان الشاب الذي كان يخدم في أفريقيا ، تناول العشاء ذات مساء عند ماسينيسا العجوز ، عدو هانيبعل القديم ، الشاهد على الماضي ونبي المستقبل إلى حد ، وحكيم الريف بنفس القدر . في تلك الظروف التي عاشتها روما ، أوحى تذكر عظمتها إلى إميليان بحلم عجيب . فقد ظهر له جده الأفريقي فعرج ما بين النجوم معراجاً ساحراً ، وكشف له عن الروعة اللا متناهية لانسجام الكواكب ، وعن قواعد الأقدار ، وعن الطارف والتليد ، وعن مكوث الأرواح الخالدة . وأفشى له السر العظيم الذي يتناهى إلينا وهو يشرح ويعلل كل الأبحاث عن الجمهورية : مناقب

رجال الدولة ، القيام بالمهام الجسام ، وحب الوطن يؤمنـان لهم خلوداً : « إذا صح . . . أن أولئك الذين نالوا تقدير وطنهم ، تتفتح لهم أسوار السماء . . . ويصرخ شيبيون ، مع أني لم أغفل منذ الطفولة ذكرى والدي ولا ذكراك ، فإن جهودي ستغدو أكثر مثابرة على ذلك ، وها أنت الآن تظهر لي مكافأة باهرة ، ويجيب الأفريقي : إعلم جيداً أنك لست أنت الذي تموت ، بل جسدك وحسب ».

هذا الوعد بالخلود ، لاينبغي أن نرى فيه تلك الـ Hetaphore المرومة (مهما تكن مصادرها ، أفلاطونية جديدة أو مورتيانية) طبعاً الوعد وعد حلم . لكنه أمل إنسان كذلك يجمع ، في تفكير فلسفي شامل ، بين القلق الديني الخاص بعصره وبين قلق العمل السياسي . لقد أتى اللاهوت الرفيع بأجوبة عن هذه التساؤلات ، بعد قرن من الزمن ، لكن الأجوبة ربما كانت أقل صدقا بالمقارنة .

البحث عن قانون :

كتاب « في القوانين » لم يكتمل ، ويبدو أن أفكاره استجمعت بعد كتاب « في الجمهورية » وكأنه متمم له . إنه انطباع حول فلسفة القانون يتوج مشروعاً لتشريع كامل هو « دستور شيشرون » وتحليله . وفيما بقي أبطال « في الجمهورية » في حدود الرواية ، فإن أبطال بحث « في القوانين »، هم شيشرون نفسه ، وشقيقه وأصدقاؤه . لأن القانون هو هم يومي والجمهورية في حاجة للقوانين .

فالقانون، على حد تعبير شيشرون ، هو الرباط الذي يوحدّ الآلهة والناس في مجتمع عظيم، القانون إذن هو الذي سيقرب ما بين المدينة الأرضية والمدينة الربانية التي تسود نظام العالم .

وماذا عن القوانين الجائرة؟ وما هو القانون؟ من الواضح أنه بعد ذلك يمكن إعطاء معنى جديد لكلمة « قانون ». كان هنالك تعريفان ممكنان للقانون : واحد شكلي تماماً واستنتاجي ، قائم على معادلات القانون العام، جعل منه نصاً وارادة شعب ومجلس شيوخ وحاكم قاضٍ. والآخر فلسفي جعل منه تعبيرا عن المصلحة العامة . اكتشف شيشرون تناقضاً في هذين التصورين . إذا لم يكن القانون سوى إرادة المشترع فثمة مجال للشك في احتمال جوره وطغيانه . أما إذا عرفناه على أنه المصلحة العامة ، فكيف يجري تحديده وتحقيقه ؟ لكي يكون القانون هو القانون ، ينبغي إذن أن يكون عادلاً ، وللحصول على ضمانة بأن المصلحة العامة سليمة ، ينبغي الدخول في التفاصيل والسهر على أن كل شيء متمثل فيها .

إن « دستور شيشرون » يعيد طرح القوانين القائمة بطريقة عاقلة وبلمسات أخيرة تجعلها متماسكة . فالاقتراع الحر ستدخل في استعماله الأخلاق ، وسلطة القاضي الحاكم سيعتنى بتحديدها ، وسيكون لمجلس الشيوخ سلطة التشريع الحقيقية . لقد ود البعض أن يرى في هذه المشاريع نمط التشريع الأوغستي . ذلك أن أوغسطس عاد فعلاً فأخذ المصطلحات الشيشرونية : فهو الأمير ولا يباهي إلا بهالته . وقد خصص أجزل احترام لمجلس الشيوخ . لكن ذلك لم يكن إلا لبساً عميا . بعد قيصر ، لم يكن في روما إلا ملكيات فردية ذات أنماط مختلفة . أما جمهورية شيشرون فقدمت قاموسها : إنها مغايرة تماماً بطبيعتها .

إن قيماً رومانية جمة ، تمكن شيشرون أن يعرفها مستخدماً الفلسفة

اليونانية كأداة للتحليل . وفي سبيلها فقد تأمل في الدعاء لوطنه . ومنذ عهد الإمبراطورية يؤيد المفكرون وصف مثال روما هذا . وقد كان مثالاً جمهورياً بالتحديد.

حوار مع الطغيان

سجل دفاع ميلون Pro Milone في العام الثاني والخمسين نهاية الآمال التي كان شيشرون قد بناها حول امبراطورية بومبيوس وتجديد المؤسسات الرومانية .

ومن الأكيد أن هذا التاريخ لم يكن تاريخ تطور مفاجيء . إذ ان شيشرون كان يعي منذ زمن طويل هشاشة المؤسسات الرومانية وضعف مركزه السياسي . ولكن قضية ميلون مسته بشكل خاص .

هذا المحامي القديم الذي كان يدفعه نحو القنصلية كان واحداً من اصدقائه المفضلين . وكان قد نذر نفسه لتشكيل فرق من المقاتلين الذين يجيدون استعمال السكين والعصا لقيادتها في الشوارع والساحات ضد فرق كلوديوس Clodius عدو شيشرون اللدود . لأن حياة روما السياسية كانت تقوم على ذلك . فكثير من العصابات المسلحة كانت تشل فعاليتها

الطبيعية . والشخصيات الكبيرة التي كانت تستخدمها وتوقع فيما بينها كانت تبقى منعزلة في بيوتها . ومن المؤكد أن هذا العنف لم يكن له أية علاقة مع الحرب الأهلية . ولكن كان ذلك نيلاً من هيبة الدولة . ولم تكن الجمهورية سوى واجهة يتبادل من ورائها رجال المال والجنرالات الضربات باختيال .

كانت العصابات التي تحمي القصر تتجاوز احيانا الحدود الطبيعية إزاء تحد بسيط . هكذا تهاون ميلون Milon في قتل كلوديوس Clodius فتألب جميع الناس عليه وعزل إلى الهم الكبير هم محاميه شيشرون الذي دافع عنه بادىء الأمر بصوت منخفض ، لأن ميدان روما كان حاشداً بجيوش بومبيوس Pompée ، ثم كتب ليعوض نصف سكوته هذا ، مرافعة صورية ، اعتبرت إحدى روائعه .

هذا الخطاب يستحق اهتماماً مضاعفاً ، بادىء الأمر اشتكى شيشرون ، بحكمته ، مما لم يكن قد استمع إليه بومبيوس Pompée . أكد شرعية العنف الذي مارسه اصدقاؤه ضد كلوديوس Clodius مستلهماً التقليد الروماني الذي كان يأتي من بروتوس Brutus ، واعطى للمرة الأولى في مؤلفاته كل جهده لموضوع : من أجل الدفاع عن القوانين يسمح بالخروج على الشرعية . كلام خطير يطرح سؤالاً كان قد عرف عن الرواقيين : لم يعد المقصود فقط قرار مجلس الشيوخ . متى يمثل واجب العصيان ؟ إلى أي مدى يتوجب الاستسلام لانهيار النظام الاجتماعي ؟ كان الحكماء منقسمين حول هذا الأمر . كان البعض يفكر أن الاستنكاف يكون شرعياً ، إذا كان الفعل يهدد بحدوث الحرب والفتنة . » قال أفلاطون في القرن الرابع : أهل اثينا اصبحوا في منتهى

الشيخوخة ، لا أستطيع أن اعيد لهم الشباب ، ولا أريد أن اغامر في اغتيال وطني ». ومن جهة أخرى ، كان الرواقيون يرددون أن العاقل قد يفضل الموت على خسارة الحرية .

كان شيشرون قد كتب Le Pro Milon (دفاع ميلون) وهو يفكر بهكذا اساتذة ، من المؤكد بأنه يجب ألا نتجاهل ثقل الظروف وطبع الكاتب نفسه . فهو من خلال هذه المقالة . دخل في تنافس ادبي مع شاب ينتمي إلى إحدى عائلات روما الغنية ، « ماركوس بروتوس » Marcus Brutus ، رواقي حديث من كاتون Caton. هو نفسه نشر أيضاً مرافعة خيالية استعاد فيها الحجة التي كنا قد ذكرناها : شرعية العصيان ضد اللاشرعية ، وكان توقفه هنا ، يعني نقداً غير مباشر لمؤلف شيشرون ، لأنه لم يكن قد اقتصر على تبرير العمل الذي اتهم به ميلون Milon . وكان قد عمل أيضاً على نفيه قدر المستطاع وعلى التقليل من اهميته . نعم ، ميلون Milon كان قد قتل ، ولكن بالصدفة ، وليس عن سابق نية ، كما أن ذلك كان دفاعاً شرعياً . هنا يكمن المصدر الثاني لفائدة هذا الخطاب . إن شيشرون كان يحاول في حدود معينة أن ينزع الصفة السياسية عن المحاورة ، هكذا كان يفضح برتوس Brutus العنيف ، الذي كان قد فضل كثيراً استخدام مسألة ميلون Milon ليهاجم مباشرة سياسة كلوديوس Clodius . ولكن مديحاً مباشراً لهذه الجريمة كان يشكل تهديداً محتوماً للمتهم . سيفضل الخطيب (بلا طائل) البحث عن تسوية . من المؤكد أن ميلون Milon كان قد قتل رجلاً شريراً . ولكن بالإضافة إلى ذلك ، لم يكن قد قتله عمداً .

يتضح غموض عمل شيشرون في هذه القضية خلال الفترة التالية .

لقد وضع مبادىء محكمة ، ولكنه حاول بمرونة واصالة فكرة ألا تدفعه لاستنتاجات مشؤومة . إنه لمن السهل ، منذ ذلك الوقت ، وضعه في موضع الشبهه . ولكن تحليل هذه الطريقة يؤدي بالاعتراف بروح توفيقي مضافاً إلى إرادة الدقة . لأن المفاهيم المدركة الحقيقية Com-promis قد تقوم على المبادىء التي حاول شيشرون أن يثبتها .

مقاومة الحرب الأهلية .

بين العام الثاني والخمسين والعام الخمسين ، السنة الأخيرة الأخيرة من حياة الجمهورية ، كان على شيشرون ، بسبب احد قوانين بومبي Pompée ، أن يترك روما على مضض ليحكم خلال سنة La Cilicie، حيث اتبع قاعدة السلوك التي كان قد حددها منذ مؤلفه Les Verrines . ربما بدا غياب الخطيب مشؤوماً،لأن المتطرفين بقوا وحدهم في روما .

لم يكن في الحقيقة التوازن الظاهري لبنيان المجتمع الروماني مستنداً إلا على موازين قوى . كان كل شيء يرتهن باتفاق ثلاث سلطات ، كراسيس Crassus ، بومبيوس Pompéeوالقيصر . الأول كان قد أضل في مغامرة عسكرية سنة ٥٤ وقتل عند البرتين Parthes . فبقي القيصر بومبيوس وجهاً لوجه . كان ذلك في وقت بعيد عن النزاعات الاجتماعية والسياسية القديمة بين الشعب ومجلس الشيوخ ، كان القائدان العسكريان الكبيران يتناوآن وكذلك القوتان الماليتان اللتان كانتا تخضعان روما لسلطانهما . كل منهما كان يفتش عن مناصرين ، فبمبيوس اعتمد على مجلس الشيوخ ، أما القيصر فقد اعتمد على الغاليين LES Gaules بعد أن انهى سيطرته عليهم ، كما اعتمد على جيشه بكل قوته ، وعلى شباب من النبلاء مشابهين لأولئك الذين كانوا قد

تبعوا كاتيلينا Catilina وعلى كثير من العاميين Populares المعادين « للشيوخ الأغنياء » .

في سنة ٤٩ انتهت فترة قيادة قيصر للجيش ، ولكنه رفض إعادته لمجلس الشيوخ ولانصار بومبيوس واجتاح ايطاليا في العام نفسه . في هذه الأثناء عاد شيشرون من أسيا الصغرى إلى إيطاليا . وفي طريق عودته مرّ بالجزر اليونانية ، فرأى رودس مرة ثانية حيث كان قد درس وكذلك رأى مجدداً ، من مركبه ، المدن اليونانية الكبيرة التي كانت مسكونة بالتاريخ . كان يبدو خلال هذه المحطات التي كانت تقربه من روما أن كل ما كان ينشيء حكمته يعرض أمام عينيه . اروقة الفلاسفة ، المبنية لتأصل السماء ، حدائق اتيكيس Atlicus أو ابيقراط Epicure المقدمة للصداقة والصمت . مدن بطبقاتها حول معابدها كما لو أن ذلك لتذكيره بالمثل الاعلى الذي كان قد حدده بنفسه في مؤلفاته السياسية .

إلا أن كل ذلك كان قد شاخ ، وتلف أحيانا ؛ فهوس التمرد والاستبداد القديم كان يحوم فوق اليونان الهرمة ، في حين أن أخبار روما ، كانت تعلن الحرب الاهلية بقدر ما كان شيشرون يقترب منها .

إنه لمن الضروري لفهم شيشرون رؤية كل ذلك . فقد أثار موقفه خلال الثورة اعنف الانتقادات . وقد لاقى اللوم على تردده ومماطلته وشكواه المحزنة التي كانت تملأ يومياً رسائله لأتيكيس ، والتي كانت تطوى في اليونان . ولكن قبل اصدار الحكم ، يجب محاولة فهم مرافعات فكر دائم النباهة والقلق .

لم يتخذ شيشرون موقفاً من النزاع بين القيصر وبومبيوس . ولكن ذلك لا يعتبر لا قرار . ولقد تصرف بدراية ، لأنه اراد أن يكون وسيطاً . لقد أيد فكر بومبيوس ومجلس الشيوخ لدفاعهما عن التقاليد الرومانية ، وأدان بحق عنف القيصر . ولكنه عرف ايضاً ، بتجربته الشخصية أن في زواج بومبيوس من الجمهورية شيئاً من الريبة . هذا القائد لم يكن اقل انتهازية من القيصر ، في حين أن الدولة شديدة الضعف ، ولا تستطيع توفير الرفاه وتبني خصوماته الخاصة . روما بمؤسساتها الضعيفة ، لا تحتاج إلا لشيء واحد : وفاق امرائها ، فقد كان شيشرون في سنة ٥٦ قد قام بدور محامي القيصر امام مجلس الشيوخ باسم السلام . فكان حسب عبارته الخاصة قد (انكر نفســه) وساهم في تمديد الصلاحيات الاستثنائية لامبراطور الغاليين Caules وفي سنة ٥٠ بدت سياسة الخطيب بدون تغيير.

ليس ذلك ضعفاً ، ولكن مرونة ، وضعت في خدمة هذا الوفاق الذي تغنى به شيشرون دائماً . فهو الوسيط الوحيد الممكن ، لأنه في وضع جيّد ، علاقته مع بومبيوس بقيت وفاقية رغم بعض التقلبات . والصراع ضد كتالينا Catalina منحه بعض التقدير من اعضاء مجلس الشيوخ مثل كاتون Caton أما الصداقات العديدة التي اقامها ، عندما كان يتهيأ لقنصليته فقد اعطته تأثيراً كبيراً على الفرسان وبخاصة وجهاء المدن المستلحقة ، المدن الايطالية التي هللت لدخول القيصر . علاقات شخصية تترجم هذا الموقع ، فقد واصل شيشرون في غياب القيصر ، الاعمال الفخمة التي كان قد أمر بها هذا الأخير من أجل توسيع ميدان روما Forum . وترك ابنته تيليا Tulliaسنة ٥٠ تقترن في زواجها الثالث

بدولا بالا Dolla Bella رجل المجتمع القلق الذي كان عليه أن يصبح ضابط القيصر ، إذن شيشرون هو الوحيد في روما الذي يعتبر صديق الجميع . فهو يعجب المحتالين ليسره وبشاشته ويعجب العاقلين المتزمتين لسمو فكره الذي يشهد له مؤلفه Le De Oratore ou le De republica .

ولكن شيشرون ، لم يعمل فكره الثاقب في احداث شتاء ٥٠ ـ ٤٩ التي حمست روما ، إلا متأخراً . وكان الجميع قد اتفقوا على وصمه بالجبن . ولم يعد احد يفكر إلا بالحرب . فقد توجه بومبيوس و « الشيوخ الاغنياء » le «Riches Vieillards» الذين كانوا بدون دعم في ايطاليا إلى آسيا ، ومنها عزموا على استعادة روما ، كما كان قد فعل سيلا Sylla من قبل حتى ولو ادى ذلك إلى احراقها قليلاً . مما جعل اليأس يدب في نفس شيشرون الذي كان جميع اصدقائه في ايطاليا ، والذي كان يستطيع أن يستشهد بوفرة ، بأفلاطون : يجب على المرء ألا يشهر السلاح ضد وطنه . ولكن ذلك ما كان قد فعله « القيصر » « وبومبيوس » ، فالأول اجتاز بجيشه نهر (ريبيكون) Rubicon والثاني كان يتهيأ لإجراء انتقامي .

إن رسائل هذه المرحلة ملأى بصرخات الألم ، ولكن يسمح بدراسة الألم بدلاً من السخرية منه . أنها في الحقيقة إحدى أجمل مناجاة الضمير الإنساني أمام الحرب الأهلية et les problèmes de l'action . لأن ضمير شيشرون حاد aiguë . نستعمل هذه الكلمة في المعنى الروماني الذي لا يميز ابداً الجانب البسيكلولوجي عن الجانب الاخلاقي . الضمير في ذهننا هو القدرة على التداول «deliberer» . والحالة هذه فإن الفلسفة

والخطابة كانتا قد حدّدَتا قواعد التداول «de liberation » . وكانتا قد ميزتا distinguer المبادىء التي تقدم غايات للأفعال ؛ ظروف هذه الأفعال ، والوسائل الملائمة للظروف ، والتي تؤدي إلى الغايات . وكانتا قد برهنتا مع الرواقيين بأن الشرف ، هو المبدأ الحقيقي الوحيد ، الخير الاخلاقي ، ولكنه على مستوى الوسائل يندمج مع المنفعة . هكذا ينتج كل عمل عن نوع من جدلية الشرف والمنفعة ، الثانية تعبر عن الأولى .

حاول شيشرون أن يستخدم ، باستمرار ، هذه المقولات ليتأمل في سلوكه الشخصي . فوجد نفسه غارقاً في متناقضات لجوجة . فالشرف يريده أن يكون اميناً لبومبيوس الذي يمثل الشرعية الرومانية . ولكن الظروف تجعل فعل بومبيوس شؤماً كفعل القيصر . نصره سبب هزيمة رهيبة للجمهورية . ألا يصبح أكثر جدوى ، على صعيد الوسائل أن يجمع بين القيصر والسلام ؟ هذا ما حاول فعله شيشرون .

لقد رفض على الدوام المجيء إلى روما ، ليستقر في مجلس الشيوخ الجديد الذي كان يجمع أولئك الذين كانوا منضمين إلى القيصر . ولكنه بقي في ايطاليا بين كتبه وتماثيله ، متنهداً لفكرة الإبحار . اتى القيصر ليراه محاطاً بالجنود والمتملقين . كانوا يتحدثون في السياسة وفي الأدب أيضاً . قبل شيشرون الدخول في مجلس الشيوخ ، شرط أن يرافع في خطابه الأول عن إلقاء السلاح وأن يمدح بومبيوس . رفض القيصر وحارب ضد انصار بومبيوس .

كان شيشرون قد بقي في ايطاليا ، تحت رقابة مارك انطوان Marc Antoine غير اللطيفة ، مما اثاره بشدة . وكان يحس بتعاسة كبيرة .

انضمامه إلى بومبيوس يعني تخليه عن انجاز مؤلف مفيد . وبقاؤه في ايطاليا يعني خسارته الشرف . كان الخطيب يحس بأنه مهان وعاجز في آن معاً . الاهانات التي كان يقبلها لم يكن لها أي مقابل نافع . وبعد تردد كبير . لحق بومبيوس ، مقرراً ذلك ، ربما ، بعد سماعه إشاعات « كاذبة » عن هزائم القيصر في اسبانيا .

استمر في الشكوى ، إزاء بومبيوس . نعرف ذلك من خلال « لكان » Lucain ومن خلال شهادات مختلفة . لقد بقي تحت خيمته ، خلال معركة فارسال Pharsale ، باكياً على الدوام . وتلقى اللوم كثيراً على ذلك . ولكن ، لا شيء في النهاية ، قد يجبره ان يلقي بنفسه في معركة تدور بين الأخوة ، وفي هذه الحرب التي كان قد ادانها من حيث المبدأ . كان قليل من التفكير يكفيه ليرى في كل لحظة أن السلام ممكن . هل على المرء أن يلومه لأنه يملك مقدرة على الخيال أكثر من هواه الحرب الاهلية ؟ .

تجربة الألم

نكبة انصار بومبيوس في معركة فارسال Pharsale تركت شيشرون في مرارة لسنين عديدة . فمن المؤكد ، أن موقفه سمح له أن يحصل بسرعة على عفو من القيصر . لقد استطاع أن يرجع إلى ايطاليا ، ولكن بالنسبة له كل شيء قد انهار .

في زمن المنفى ، سابقاً ، كان قد عاش تجربة الهزيمة . فلا بد من الاعتراف بأنه لم يستطع أن يتكيف أبداً . كان في منتهى الدهشة ، وكانت قد بدت عليه كل علامات الضعف والانهيار العصبي ، وكان قد

عكف إزاء اصدقائه ، على نوع من الابتزاز بالانتحار . ولكن الحظ عاد بعد هذه التعاسة . في سنة ٤٨ ، بدا أن كل شيء قد ضاع . فكيف هذا المزيج من الكبرياء والحساسية التي تؤلف طبع شيشرون سيقاوم المحنة ؟ .

هذه المحنة أكثر قسوة من حياة الخطيب الخاصة وشديدة الارتباط بحياته السياسية . كان فيما مضى ، قد تزوج من تروتنيا Terentia الغنية والبرجوازية . هذا الزواج فشل بسبب المنفى . ولما اقترب الخطيب من الستين وجد نفسه وحيداً ، مديناً ، وبدون مقدرة . ولكن المحنة الأسوا فاجأته في سنة ٤٥ ، عندما توفيت ابنته توليا Tullia التي كان يحبها حباً كبيراً ، بعد أن تركت Dula Bella (دولا بلا) المتقلّب ، واصبح شيشرون يفضل القيصر إحدى شخصيات النظام الاساسية . هكذا كل شيء اختفى . اصدقاؤه في المنفى ، الجمهورية ميتة ، مطلقاً ، في حداد على ابنته ، ولم يتبقَّ له سوى ولد واحد ، خوف ذلك مهاناً من اخيه وابن اخيه اللذين لم يصفحا عما اسمياه ـ سابقاً ـ اخطاءه السياسية ، فوجد شيشرون نفسه وحيداً وعجوزاً .

وقد تلقى اللوم لأنه لم يكن حساساً ، كما كان قد اتهم خلال المنفى بشدة الحساسية . ولكن يجب ، مجدداً ، أن تأخذ بعين الاعتبار الظروف ، والزمن . أنه شخصية رسمية ، قنصلي ، وهو يمتلك خلفه تراث عائلة ايطالية عريقة ، ومن جهة أخرى ، قد لا ندرك كيف يحس الاستياء دون ان نتصور ثقافته الشديدة الاصالة والعمق . كل ذلك يتدخل بسلوكه ، بطريقة غالباً ما تكون غريبة .

إن رسائله سنة ٥٤ ، مثلاً ، تشهد بأن اهتمامه الأساسي هو إقامة

نصب جميل لـ تيليا Tullia ، وقد يصح ذلك بعيداً ، حيث ذكراها قد تتغير شيئاً فشيئاً على الطريقة البتاقورية Pythagoricienne إلى عبادة ، بحيث ان الحمية الوطنية قد تمجدها . هل علينا أن نسخط ، وأن نفكر أن شيشرون يريد أن يحقق من هذا القبر فرصة جديدة لغروره ؟ . ربما لا . ان كتابات فلسفية كتبها في نفس الوقت ، تعبق بمعانٍ أخرى . إن تفكير شيشرون الذي يمتاز بالشك والاضطرام لا يعرف كيف يدرك الخلود . لا شك أنه يحلم في مؤلفه le Songe de Scipion بحياة أخرى سعيدة ، ولكنه لا يملك يقيناً في ذلك . ويخشى أيضاً ألا يكون خلودنا هو خلود مجدنا ، الذي ليس له بقاء إلا في (ذاكرة) البشر (souvenir) وفي قلوبهم . هـذا النصب المخصص لـ « تيليـا الصغيـرة » كـان كضمانه . بدا أن شيشرون لا يملك مالاً ولا وقتاً من أجل اقامته . ولكن رسائله حلّت محلّه .

هذا الحداد بالنسبة له ـ افضل من احزانه القديمة ، لأنه كان قد شاخ ـ منذ المناسبة التي اعتاد فيها على الألم . هنا ايضاً ، اظهر المحدثون les modernes استخفافاً . إلا أن شيشرون بدا وكأنه يتغلب على المتاعب بوضوح . تقدم لنا رسائله بين جميع الأعمال الأدبية اللاتينية الصرخة الأولى الكبيرة للحساسية الشخصية . انها المرة الأولى التي ينزع فيها رجل ـ شخصية رسمية ، ذات اهمية ـ القناع باحثاً عن الوحدة . كان الشعراء اليونانيون قد عبروا عن هذا النوع من الألم . اما شيشرون فقد احس به ورغب به ، وبعزاء الصمت والعزلة . اما اتيكيس Atticus ، الذي كان قد شجعه ، وصف الغابات التي تحيط بعماراته ses Villas ، حيث كان يستغرق طول النهار باحثاً عن الاستجمام

والنسيان . لماذا يكون حكمنا خادعاً على ألم مشابه لدى الآخرين ؟ لم يرد الخطيب أبداً إلا أن يكون انساناً .

نعم لقد كان يحمل كتبه إلى غاباته . لم تكن أبداً كتابات الشعراء الوجدانيين . بل كانت مؤلفات Chrysippe و Cleantheو Grantor وفلاسفة آخرين ، كانوا قد كتبوا في فن العزاء . قرأ شيشرون ذلك باكراً ، وكتب بعد ذلك عزاءه الشخصي ، لقد كان بليغاً جداً واحرز نجاحاً كبيراً . فالأصدقاء العديدون الذين كانوا قد توجهوا إلى الخطيب برسائل تعزية ، وجدوا في كتاباته نموذجاً يحتـذى. هل علينا هذه المرة أن نغتاظ أيضاً ؟ لا إن شيشرون كان كاتباً . ودشن طريقة وإذ بنظرائه يقلدونه عبر القرون ليشفوا من عواطفهم الخاصة : رونسار Ronsard في « الحب » les Amours هيجو Hugoفي البوكا مايا Pauca meœغوته ، Gothe في فارتر Wrether . لقد كان يحاول أن يشفي نفسه بترويضها ، وأن يحملها على الشجاعة .

الفلاسفة القدماء الذين كانوا يؤمنون جيداً بقدرة المنطق «logos» ، كانوا قد اعتقدوا ، دائماً ، أنهم بقوة البلاغة والعقل قد يستطيعون إحراز الاتزان L'impassibilité . وكانوا قد دفعوا بعيداً جداً في هذا الاتجاه تقنيات الاعداد الروحي . كما اننا نملك كتباً للصلاة ، فهـم كانوا قد أسسوا فناً كاملاً في كبح جماح الأهواء ، أما شيشرون فلم يكن على حق في احتقار طرق التهدئة هذه .

من جهة أخرى ، لم تكن تذهب ضد ورعها Ferveur ، لأن طريقة التعزية التي تعرضها Les Tusculones كانت مرهفة . لم تكن تدين سوى الإدمان على العذاب ، والفوضى التي كانت تخلقها في المشاعر

والافكار ، والعصيان الأعمى ، ورفض القبول ولكنها لم تكن تتنكر للألم إذا كان هادئاً ، واضحاً ، ومقبولاً ، وإذا كان يدخل إلى صفاء المخلوقات الحقيقية أولئك الذين يعيشون حياتهم بملئها . بصدد موت تيليا Tullia يرتسم في مؤلفات شيشرون ميل سيتأكد لاحقاً في حواره الخاص حول الصداقة De l'amitie ، وكذلك في الرسائل اللاتينية ، هذا الروح المضطرم لم تنكر كلياً لتجربة ولقيم الحساسية كما فعل بعض الفلاسفة الكلبيـن Cynique والرواقيون . ولكنه حاول أن يعمقها بالحجة وبنوع من التمرين والتدريب المستمر ، وتطهيرها من الهوى ومما يعكرها . الاتزان الذي تمناه شيشرون يجمع الهدوء والوضوح إلى الشفافيه واريحية القلب . ليس مصادفة أبداً أن يحب علماء الانسيه les humanistes في عصر النهضة مثل اراسم Erasmeأو بتراك Petraque هذه الحكمة . لقد اعجبوا بقوته بقدر ما اعجبوا بمرونته ومهارته بأن يكون حيا ـ لنقل : بانسانيته .

معارضة القيصر

في نفس الوقت الذي كان يعتاد فيه على قهر ألمه ، كان شيشرون يجد ايضاً بعض العزاء في الحياة السياسية . وكانت الخيبات التي انضجته تمنحه اسلوباً جديداً . فكان القيصر قد رضي به كأحد زعماء المعارضة . فكان يرافع امام الديكتاتور دعاوى انصار بومبيوس Pompée المنفيين ، وكان يحاول أن يحقق استدعاءهم . ولم يكن قد قبل الرجوع الى مجلس الشيوخ الا عندما كان قد سمح بعودة مارسليس Marcellus الذي يعتبر واحداً من المفضـلين بينهم .

كان شيشرون يظهر بتوجهه للقيصر مرونة كبيرة. فقد كان يعترف بنفوذه بشيء من المبالغة وكان يسمح لنفسه ايضاً ان يخاطبه باللغة القديمة التي كان الفلاسفة يخاطبون بها الملوك. كان يستوحي افكار حواراته من فكر افلاطون الذي كان سابقاً قد حاول بدون جدوى، أن يمذهب دنييس سرقوسيا Denys de sgracuse. وعندما كان يتصنع في اقتباس أسلوب أرسطو في كتاباته للقيصر، لم تستقبل رسالته بحفاوة، لأنها كانت تنزع إلى إسقاط القناع من اسكندر جديد، والرومانيون لم يكونوا يحبّون أبداً ذكرى هذا الأمبراطور، وفي أوقات أخرى كان الرواقيون يأتون لنجدته، وكان الخطيب يؤلف مديح كاتون اتيكا[1] بعد أن انتحر في أفريقيا من أجل إنقاذ حريته. لم يكن القيصر سوى أن يرد بـ كاتون مضاد Anti Caton وكان يقبل محاورة الأفكار هذه ظاناً أن بوسعه التخلص من الخضوع للشرعية عن طريق تعاطيه الحكمة. إذن فشيشرون لم يكن أقل مهارة. رسائله تشهد بأنه قلما كان يعتمد على تحول القيصر. ولكن لأنه كان مضطراً أن يخضع لسيطرة هذا الأمير، فلماذا لا يحاول أن يحوله باتجاه أكثر سعادة مع حرصه الفائق أن يقبل بذلك مبدئياً، انها طريقة كئيبة ليحتفظ بالنافع والشريف في آن معاً.

هذا هو معنى خطاب حول استدعاء مارسيلوس. يجب باديء الأمر التأثير على النظام، العمل على عودة انصار بومبيوس، ونشر السّلام. توجه شيشرون الى عطف قيصر بعبارات كأنها تنبيء بسينا كورناي، راجياً اياه على طريقة الفلاسفة، ان ينتصر، ليس فقط، على اعدائه ولكن على انتصاره ايضاً.

---

(١) مدينة افريقية قديمة بالقرب من قرطاجة (utique)

ولكن هذه النصيحة نفسها كانت تحذيراً. كان الخطيب يذكر القيصر أن النصر خطير. نعرف ذلك من المؤرخين القدماء، إذ ان المؤامرات ضد الديكتاتور تبدأ منذ اعتلائه العرش. ولم يكن يواجهها إلا بتهوره ولكن شيشرون كان ينذره بأنه إذا كان يرفض اعادة الدستور الشرعي وتقاسم سلطته مع «امراء» الدولة الآخرين فانه يركض إلى هلاكه. هكذا كان الخطيب يحافظ على موقعه كوسيط. وبدفاعه عن جوهر المؤسسات القديمة، كان يثبت كزعيم لاعداء القيصر. ولكن بقبوله ان يتكلم معه، باسم الحكمة، كان يبقي الباب مفتوحاً اما الحلول السلمية.

قد تحقق شيشرون أن أفلاطون كان قد قال حقاً بتوعده الطغاة بقدر غاشم. وقد كان قدر القيصر الذي لم يصغ له السقوط. وبدا ان الخطيب لم يشترك في المؤامرة. ولكنه ضعف في المرحلة الأخيرة من الصراع. بهذا الحدث كان يبدو له مؤلفه le De republica مثبتاً. بدون العدالة، لم يكن التهور، ولا حتى العبقرية كافيين لصون الأمير.

من العمل الى الحكمة

دان شيشرون للقيصر، رغمًا عنه، بتجربـة الراحة. فنشاطه كزعيم للمعارضة ترك له، خلال سنتين، اوقات فراغ عرف ان يكرسها للفلسفة. فاخذ يكتب لأنه قلّما كان يتكلم.

ظُن انه كان ينسخ الفلاسفة اليونانيين. ولكن بماذا كان قد يفيده هذا النشاط؟ قد لا يكون سوى بوفار Bouvart وباكيشPécuchet قد اعتبرا كـ نسّاخين. وكان لهما حججهما ايضاً. كذلك لشيشرون حججه.

هذه الحجج قادته لكتابة مؤلفاته في السياسة. ولكن منذ ذلك الوقت، كان يذهب بعيداً ويتساءل حول الأخلاق والآلهة. كان يستعيد المشكلة الكبرى التي كان قد طرحها في le Pro Sestio: هل من الممكن التوفيق بين الراحة والشرف؟ هل يوجد نظام من القيم يتجاوز الفعل دون ادانته؟

بعد وقت قصير سيكون لتعاليم شيشرون اهمية كبيرة. فمن المؤكد، أن المذهب الذي يعرضه ليس شديد الاصالة في محتواه. اذ ان تأثيرات الافلاطونيين والارسطاطاليين تختلط في انتقائيته . واختيارات شيشرون ذات مغزى.

كان يلزمه ان يعرف ماذا يحكم في السعادة. كان عليه ان يتحقق من قناعاته، وان يقارن بين اخلاق الفلاسفة وتقاليد وطنه. قد نظن ان هذه الاسئلة أو اجوبتها قد كانت متجاوزة؟ المقصود ما يتعلق في التفكير في حقوق الفرد في المدينة، دور الدين في القانون، ومساهمة القلب في الأخلاق. هل عرفت هذه الحكمة التي تطمح الى الرصانة أن تتجنب النفاق والعناد؟

عمل شيشرون، إجمالاً، لصياغة فلسفة ذات نزعة انسانية في الوقت الذي انتقد فيه الكثيرون هذه الطريقة في تأهيل الأذهان. واتفق انه استخلص منها الخيارات الاساسية لتجنب سوء الفهم:

يعبر عنها بنقطتين. شيشرون اراد احترام الانسان، ولكنه لم يعتبره كالقيمة الاسمى. لقد وجد فيه جمالات تتجاوزه، لأن الانسان يشبه الآلهة ويحمل في نفسه انكار الذات وحس الموت من اجل اخوته.

من ناحية اخرى، فان هذه النزعة الانسانية لا تعبر عن اية يقينية. انها ترتكز على فن في الشك. فشيشرون يعرف حدود الانسان، وبخاصة، في نظام فكره. دافع كثيراً لعدم تقدير معنى الشكوكية وقيمتها. كيف تحب ما هو انساني من خلال عدم اليقين، والرغبة في نظام اكثر نبلاً، هذا ما أرادَ الفكر الروماني تعليمه او اكتشافه. لأن

شيشرون اتجه نحو الفلسفة، ساعة القلق. هل وجد الحكمة بمقدار ما فتش عنها؟

الشكوكية والحقيقة

يبدو قسم بكامله من مؤلفات شيشرون بعيداً جداً عن هـذه الاسئلة، المقصود من ناحية مؤلفاته الدينية: في طبيعة الآلهة De la nature des dieux، وفي القدر Du destin، ومن ناحية أخرى، مؤلفاته حول مشكلة الحق والاكاديميون les Academiques.

وفي الواقع ان هذه المؤلفات تشهد كغيرها على همومه كرجل دولة. إن مشكلة الوجود وتأثير الآلهة هي اساسية، في مدينة متدينة كروما. وقد بدأ مصير القيصر يكبر حالما اصبح حبراًأعظم . وهل استطاع العرافون ان يتماسكوا دون ضحك؟ يتساءل شيشرون حول ذلك في مؤلفه القوانين Des lois. يذكر بما للعرافين انفسهم من آراء مخالفة حول المسألة. هؤلاء كانوا يتساءلون في ملء القرن الأول اذا كانوا سيستطيعون تنبؤ المسقبل. وكانـوا يجيبون بـطرق مختلفة. Apprus Claudus الذي بدا انه قد عرف فن استغلال الولايات. وكان واحد من زملائه يعتقد ان منجزات الحضارة كانت قد أمحت شيئاً فشيئاً لدى الرومان الذين قد هرموا هبة كانت الآلهة قد انعمت عليهم بها، عندما كان شعبهم فنيا.

كان شيشرون يميـل الى هذا الـرأي. وكان يقـدر أن العرّاف الفيلسوف، كان بدون شك، معصوماً، لأن علمه كان يسمح له ان يفهم حركة النجوم، وكانت حكمته تتيح له ان يقدم افضل النصائح

لمواطنيه. أجابت مؤلفات شيشرون في الفلسفة الدينية عن اسئلة مشابهة. ووضع الخطيب بعض معتقدات اجداده في موضع الشك. لم يكن ذلك حباً بالفلسفة. ولكنه اراد أن يعمق حسن الحكمة الرومانية، وقد مدح سابقاً، عضو مجلس الشيوخ Lelius الآلهة. فماذا قال الفلاسفة في هذا الصدد؟

كان الجواب غريباً: اعتقد الرواقيون أن الآلهة توجد حقيقة. وارتاب الشكوكيّون بامكانية معرفتهم وخلطوا بينها وبين الطبيعة الحقة. فبدا لشيشرون الرأي الأول أكثر واقعية والثاني أكثر صحة ماذا يعني ذلك؟

لفهم ذلك، لا بد ان نذكر ان خطيبنا محام. فهو يعرض المشاكل بطريقتين، كقاضٍ يقرر ما هو صحيح وكمرافع يحاول ان يعطي انطباعاً حسناً وينهمك بشكل خاص بالظاهر. في المحاماة يلتقي خيال السفسطي ودقة القانونية. ويفتش شيشرون عن نظام فلسفي يسمح بالتوفيق بين هاتين الحالتين الذهنيتين

وقد وجده في احدى مدارس زمنه: الاكاديمية الجديدة، ومن اهم اساتذتها Philon de Larissa ثم انطونيوس عسقلان Antonius d'Ascalon . كانت قد اعطته دروساً. هذان المفكران لم يكونا متفقين حول كل النقاط. كان الأول اكثر شكوكية والثاني اكثر غوغائية ولكن الاثنين حاولا ان يوفقا بين يقينية الفكر الرواقي وشكوكية سقراط المنهجية. للفكر دقتان. دقة التأكيد ودقة النقد. كانا يريدان الا يضحيا باي منهما. كان انطونيوس يتمنى، بشكل خاص، ان يوفق بين الثقة الكبيرة التي كان يضعها الرواقيون في الطبيعة البشرية وفي وضوح الحقيقة وجدلية الاكاديمي Carneade المرتابة.

حاول شيشرون كذلك ان يوفق في مؤلفاته بين دقة التأكيد ودقة النقد. هل تخلى عن الأولى والثانية؟ لا، بدون شك، كان عميقاً ما فيه الكفاية ليفتح الطرق التي ستتبعها لاحقاً الفلسفة العقلانية بكاملها ومثلها الفلسفة الدينية، حين حاول ان يوفق بين التدين الرواقي والشكوكية الأكاديمية. إنه يقول أن الإيمان بالآلهة يتعلق بنظام الحقيقة البينـة. لكن دراسة الطبيعة تتعلق بنظام الحقيقة النسبية.

الأمر الثاني هو أكثر محدودية من الأول. وهو لا يتألف من نفس المبادىء. بشأن الحقيقة، مثلا، يجب ان يكون هناك اجماع من كل البشر. اما بشأن الممكن، يكفي كلام رجل عاقل. يكفي كلام افلاطون Platon للاعتقاد بالخلود. ولكن ليس لنصبح اكيدين من ذلك.

هذه الطريقة في ادراك الحقيقة تسمح لشيشرون ان يظهر استقلالاً كبيراً وامانة كبيرة ازاء قيم وطنه التقليدية. إنه مستقل لأنه يعرف ان يميز الحقيقـي مـن المحتمل وان يحتقر على طريقة الشكوكيين ولاحقاً كـ بسكال «اراء الشعب الباطلة». ولكنه امين لأنه يؤمن كثيراً بنفسه ولأن وطنه كان يبدو له محتفظاً بسلطة كبيرة في كل المشاكل التي حلها جيداً، قال: يجب ان نحب وطننا لأنه أمـنا وابونا ولأنه عادل. نتحقق ان في الحالة الأولى يسلك المرء كطفل وفي الثانية كرجل ذلك لأن القوة والضعـف هما دائماً متواصلان في عقلنا.

اختيار الجرأة

هذا الموقف يوضح ان شيشرون، يكتب اعماله الفلسفية بشكل

حوارات متبعاً تقليداً في ذلك، نرى فيها شخصيات التاريخ الروماني الأكثر شهرة تتحاور فيما بينها تجلس كسقراط تحت اشجار، ليس على الأرض، وانما على أرائك، يشاهدون النسور في السماء كما فعل فيما بعد Fabrice[1]

التفكير الفلسفي مرتبط بقدر الوطن. ولكن ايضاً بقدرنا. ومؤلفات شيشرون الاساسية تشهد على ذلك. انها تمارين روحية. المقصود كسب القوة. فشيشرون دائماً كان ضعيفاً. ذلك يعود، بدون شك، الى هذه الحساسية البرندالية[2] التي تشوش، بدون انقطاع على رؤيته جاعلة منه قاضياً وطرفا في كل قضية؛ ويعود ايضاً الى نقص كامل في الاتزان. قد نتذكر اضطرابه في المنفى. شيشرون، في رسائله، لا يكف عن الشكوى الا ليجعل الآخرين يشتكون بشكل أفضل.

في رسالة الى Atticus، كتبت بعد موت القيصر تظهر ان الخطيب قد طلب من الفلسفة ان تصونه ضد الانتكاس. انني املك منذ الآن فصاعداً متراساً، يعلن مؤلف Tusculanes. شيثبت ذلك بمثابرته.

كذلك كتب شيشرون حول الخير وحول النفس والأهواء. le De finibus , les tusculanes ليسا سوى امتحانات للضمير. تلزم جرأة سناك Senèque لإدخال هذا النوع من التأمل في النشاط الثقافي لرجال

---

(١) بطل إحدى قصص ستندال شاب طموح متعطش للمجد والسعادة (Fabrice del Dongo)

(٢) انه Pirandello ـ مؤلف وروائي ايطالي (١٨٦٧ ـ ١٩٣٦) حاز على نوبل سنة ١٩٣٤

الحكومة الرومان. انها بالأحرى مرافعات خاصة، احكام تطلقها الروح على ذاتها من اجل متعة كسب قضية الخير. شيشرون يسمي هذه المناقشات اطروحات ويعطي الاسم نفسه للمشاكل العامة التي تستخدم كقاعدة في برهنة خطاباته. المقصود دائمًا بالنسبة للخطيب أن يحدد اخلاقاً ان يكون مثلاً رجل خير Vir bonus.

ذكرى سقراط حية في الأذهان. لقد اظهر هدوءاً كبيراً قبل تناوله السم. يجب تقليده. شيشرون بذل جهده في ذلك. من خلال سقراط ومن خلال الحكماء الرواقيين الذين كانوا يقاومون مقاومة كاملة كل الآلام كان قد كون فكرة ما عن الكمال تتطابق والمثل الأعلى لبطولة الرومان. كان شيشرون قد تخلى عن اللهجة العسكرية ولكن ليس عن الشجاعة لهذا الأمر كان يحضر نفسه ذاكراً، دون انقطاع، موت سقراط وكذلك الطاغية Phalaris، الذي كان يرمي بسرور كبير الفلاسفة في ثور من البرونز محمّى حتى البياض. كان يجب التمرن ليبقوا «سعيدين»، داخل الثور مثل Katov في «الشرط الانساني» «La condition humaine» في قاطرته كان يجب الاستعداد عند الاقتضاء لرفع الرأس في وجه الجلادين الخرقاء.

هذا المفهوم السامي للشجاعة والسلام، يشرح بدون شك خيار شيشرون الحاسم. لقد تخلى الخطيب عن الفلسفة الابيقورية. في مذهب Antiochus وPhilon، يحتفظ بشكل خاص بالفكر الرواقي. وهو وحده يجيب عن كل متطلبات الحياة. يخدع الابيقوريون انفسهم باعتبارهم ان منتهى الحياة في اللذة. شيشرون تعوّد ان يعتبر ذلك في الفضيلة. تلك ترافقنا داخل ثورPhalaris دون ان نفعل ذلك باللذة. سيبقى الرومان

حتى Tacite وحتى القديس Augustin مخلصين لهذا الخيار.

إحدى ميزات الرواقيين السائدة مكونة مما كان الاغريق يسمونه (Philanthropie) «التضحية في سبيل الانسانية». شيشرون ترجم: Charité cartias. لأن الدقة الوحيدة للفكر لا تكفي لتأسيس شجاعته. يلزمه ايضاً ان يتكىء على حسن نكران الذات. هنا ايضاً يلعب دوراً كمحام. لقد علمته أن يضع نفسه في مكان اولئك الذين يتألمون، ان يفكر بالعدالة ليس فقط من وجهة نظره، ولكن ايضاً على طريقة الضحايا. لهذا يذكر بسرور كلمة Terence «أنا انسان ولا شيء انساني غريب علي» كان يجب لحالة النفس هذه أن تحصل على نتائج غنيّة: تتجلى بشكل خاص في ترجمة الحق، وتقود شيشرون لإرجاء الرسالة الى جهد نحو العدالة. وحتى نحو تأمل الرحمة والألمستستخدم المسيحية لاحقاً بعض نتائجه. خاصة، ان الحب الانساني يحفظ الخطيب في المحن حيث قد يستطيع تردد الفكر النظري دون سلاح.

فلسفة شيشرون، تصف ذلك، هي فلسفة فنان. هذه الرواقية التي يتبنى لا تتخذ كنموذج بيقين العالم. فهي تعود مع افلاطون والاكاديمية الى امثلة اخرى، امثلة الفن والدين. Phidias حين يشرع في التمثال، لا يعرف عنه شيئاً تقريباً. امام عينيه صورة المثل الأعلى للجمال التي ليست من هذا العالم. هكذا يجب علينا ان ننحت انفسنا كالرخام، محتفظين دائماً امام اعيننا بالأمثلة الطبيعية الكبيرة ـ مثل الشجرة، مثل الانسان ـ ومثل الآلهة. شيشرون يدرك حياته لا كسير في اليقين ولكن كخلق فني وكبحث داخلي لكمالنا الخاص. كتب، ترجمته لـTimée أن الآلهة يملكون فكرة عن كل مخلوق. بلا ريب انه قد فتش عن الفكرة

التي كانوا يملكونها عنه . . .

انظر اي مثل عن حب الكمال قد ترك. ولكنه أوضح بطريقة مختلفة حسّ التقدم عنده. اعماله ليست امتحاناً للضمير، ولكنها تقوده كل مرة لا لاختيار رضى النفس، ولكن لاختيار معتقداته نفسها. هكذا فان نهاية حياته ادت به لانتقاد هذا الاتزان الذي كان قد ظن أن عليه اطراءه.

في مؤلفه عن الصداقة De l'amitié يمجّد Lelius لبكائه Scipion. كيف لا يأسف من رؤ ية الفضيلة تترك الأرض؟ وحدهم اولئك الذين يبحثون عن اللذة يمكن ان يخافوا من الألم. وبالعكس فان اولئك الذين يحبون الفضيلة يقبلون ان يتألموا حين يرون ان الخير غير محترم او حين يختبرون عدم جدارتهم الشخصية. هكذا فإن شيشرون، في فلسفته، ذهب امام الألم. موت القيصر كان سيحمل له فرصاً للتألم مقدما اختيارات جديدة لفضيلة الرّومان.

رفض العبودية

في آب من سنة ٤٤ ابحر شيشرون الى اليونان. كان انطوان Antoine قد تركه يرحل. وكان يستطيع مرافقة Bratus. إذ انه كان في البحر ناجياً من الموت. كان يفر. وقد ارتكب ما كان المؤرخون سيسمونه الخطأ الاكبر في السياسة. عاد الى الأرض، ووصل الى روما حيث الغى الخطبة الأولى la première Phillippique، اكان المقصود خطأ، نستطيع ان نحكم عليه بالنتيجة. شيشرون كان يذهب الى الموت. ولكن لو كان قد انتصر لأطروا على شجاعته. «تبعاً لذلك ستصبح قوياً او تعيساً».

لماذا كان يعود الى روما؟ ليكمل دفع الديون التي كانت قد توجبت عليه. ولكنه لم يجازف بحياته من اجل ديونه، لندافع عنه ؛ ما هي حججه؟ الخطاب الأول، في أيلول، ليس اعلان حرب. سخر الخطيب

من انطوان. ولكنه عرض ايضاً المصالحة. اصرّ على صداقته لزعيم القيصريين. قال ان لانطوان طبعاً سيئاً ولكن لا بد من تحمل ذلك من صديق. هذه السخرية تركت مجالاً للسلام. ولكلمة صداقة معنى لدى السياسيين الرومان. لا تعني أن يحب المرء صديقه ولكن أن يقبله باخلاص وان يكون تقديره له مرتبطاً بالعدل والواجب. وكانت رسائل هذا التاريخ تشهد على اذلاله العميق.

مؤلف في الصداقة Sur l'amitié، الذي كتبه في نهاية الفصل الأول يشهد على هموم الخطيب. ربما فكر انه من المسموح قطع علاقاتنا الخاصة، إذا ما تناقضت مع المصلحة العامة. ليس هناك توافق سياسي ممكن خارج الواجب. ليس المقصود هنا مجالات مشتركة لبعض الفلاسفة ولا نقاط التقاء بل إننا أمام مناظرة حول النوعي المأساوي. سيكون القرار الذي سيتخذه شيشرون حاسماً. هو الذي فتش دائماً عن السلام في روح المصالحة في فن المجاملة، كان يغدق فيها مضى بجميله على عدوه القيصر ليتأكد من رفقه من خلال كل الصراعات، هوذا يتخلى، ظاهرياً عن مديح التضامن السياسي ويعلن ان الاعمال الفاضلة التي كان انطوان قد قام بها ليست ملغاة في فهمه للواجب. المتفرد القديم في التعبير زاد عن الدقة.

عرف جيداً بماذا جازف. بين الخطبة الأولى la 1ére Philippique، الميالة للتسامح، والثانية التي هي اشهاد للكراهية، كتب رائعته الأخيرة في الفلسفة السياسية le De officiis. هذه المرة، لم يعد يتكلم عن القوانين، ولا عن الدولة المثالية. فقد عالج موضوعاً كان قد اهمله حتى ذلك الحين! الواجبات الشخصية تأمل زاهد وسام، ستصبح اهميته

هائلة في تاريخ الفكر والقانون.

سأهتم أولاً بما كان المحدثون modernes قد سموه «هم الصفاء» ولكن اي صفاء؟ سام هو ضوء الفضيلة. ولكن شيشرون كافلاطون عرف بأنه يعمينا. لقد تردّدامام الحكمة، التي بدت عظيمة جداً بالنسبة له، ولم يعرف من أين يمسك بها. انتهى - بتواضع كاف - الى ايجادها في اللياقة، في ما الرواقي Panétius سمّاه لطافة ولياقة. بالنسبة لشيشرون الآتي متأخراً جداً فكل المعتقدات dogme الفلسفية تقريباً كانت قد اهينت. ولكنه ظن نفسه أيضاً قادراً أن يتحقق من جمال حركة ومن سداد موقف. في حين أن الايديولوجيات تهاوت أمام الشك وخيبات الأمل، يبقى أيضاً قادراً أن يقدر الجمال الانساني. «كل انسان، وان كان شديد البؤس يستحق شيئاً من التبجيل».

يبدو ان الخطيب الشيخ لم يعد يعتقد الا في ذلك. ولكن هذا كاف ليصبح راسخاً. ومن بين هذه الأعمال اللبقة التي تعجبه ايضاً، هناك واحد يفضله على كل الأعمال الآخرين وهو يذكره غالباً: كان القرطاجيون قد أخرجوا عن Régulus فيما مضى، وكانوا قد كلفوه أن ينصح الرومان بالتفاوض وهو كان قد سجن ظلماً. نصح في الحرب ثم رفض، بالرغم من الضغوطات، ان يبقى في روما، ثم عاد الى الاعداء باحثاً عن الموت والتعذيب.

كتب شيشرون بدون شك هذا النص حين عاد الى روما، بعد ان كان خصمه السياسي قد تركه يرحل بأمان،إنه لمن الشيّق ان نفتش معه

عن حجج Régulus . فهي تتحدد بكلمة: لم يرد Régulus ان يخالف الفكرة التي كان يكونها عن الجمال الاخلاقي. مؤلفه le De officiis يربط ربطاً وثيقاً فكرة التخلي بفكرة الانتصار وفكرة الشجاعة بفكرة الفضيلة. ولكن لا نرى ان المقصود هو الحرب. Régulus لم يرد التفاوض. كذلك شيشرون ذهب ليدفع، سريعاً، صراع مجلس الشيوخ ضد انطوان، الى حدوده الأخيرة. هو الذي كنا نرى فيه دائماً رسولا للسلام بأي ثمن هوذا يتمنى امام انطوان الحرب بأي ثمن. هل يفسر هذا الانقلاب الغريب، هذا الانتقال من الحلم الى التعصب بغير الكراهية.

جهد الفصاحة الأخير

عرف الصراع، من شباط الى اذار، ما كان قد سماه احد المؤرخين الانكليز جولته الأولى فاز شيشرون بالنقاط. ولكنه كان قد اراد سحق خصمه. تصرف كما لو انه ديموستين Démosthene ضد فيليب جديد.

كان النزاع بين انطوان ومجلس الشيوخ كامناً منذ اغتيال القيصر، ثم انفجر عندما توجب عليه توزيع المقاطعات بين الولاة القدماء.

لقد رفض بروتوس Brutus وكاسيوس Cassius ، قاتلا الدكتاتور، التسلط القائم في الولايات السورية ومقدونيا، فانـطلقا في منتهى الاستعداد لاستعادتها بالسلاح.

ادرك شيشرون ان انطوان كان يتردد ولم يلحق بهما. ولكنه شجع الآن احد القادمين حديثاً، Octavius ابن القيصر بالتبني الذي جند افواجاً على نفقته، والذي يقاتل انطوان من اجل ان يضمن لنفسه وراثة

السلطة. هكذا كان الموقف السياسي في بداية عام ٤٣. Brutus وCassius حشدا الجيوش في آسيا. اوكتافيوس متحالفاً مع جيوش مجلس الشيوخ دفع انطوان نحو شمال ايطاليا حيث ابن بروتوس Decimus يسيطر بصعوبة على Modène. اصبح شيشرون في هذه الظروف رسول الحرب. اما Pison وSulpicus Rufus فنصحا بالاعتدال وعملا على مفاوضة انطوان في السفارات، أدان شيشرون محاولتهما امام مجلس الشيوخ والشعب، مظهرا تعصباً خارقاً في خدمة فكرة واحدة: الحرب ضد انطوان عادلة. اسقط عن هذا القائد الحقوق المدنية فهو ليس سوى حيوان متوحش، مصارع يجب مقاتلته باحتقار. انطوان لم يعد بشراً.

هذا العنف لدى شيشرون مفاجيء قليلاً. تعريفات الحرب العادلة تذكر بمؤلفه الواجبات« Devoirs » ولكن أين هنا الاعتدال، والانسانية؟ انطوان، الذي احتفظ بدم بارد نظم دعاية مضادة مؤثرة، لن ينساها التاريخ ابداً. قال: اريد السلام اطلب فقط ألا اسحق. كيف يمكن اتهامي بانني عدو النوع البشري، في حين انني أدين بسلطاتي لانتخابات قنصلية؟ انني امثل الشرعية اكثر من Octavius. بما ان شيشرون يحتقر المصارعين، سأجيب بأنني ايضاً احتقر «مدرب المصارعين» مدير المسرح هو الذي يدفعهم للقتال:

شيشرون يمتلك الحجج ليتمرد ضد هذا الكلام الحليم. وقد نسي المؤرخون الحديثون ذلك احيانا أحدى افضل الحجج هي ان شيشرون يعرف انطوان. الضابط المشهور، اما انطوان فقد استفاد من دروس القيصر. ولكن طبعه القوي انساه تجرد وصفاء الديكتاتور القديم.

«وإذا ما هدد بعض قواده بالعصيان، فانه يستقبلهم برفقة عشيقته الممثلة Cytheris ويعرض لها بمهارة مشهد ذبحهم. »

سابقاً في زمن القيصر، كان يحصل لمارك انطوان، الذي كان قنصلاً، ان يتقيأ وهو ثمل أمام الناس. كان يستفيد من ذلك ليظهر بمظهر الفيلسوف، ويعظم السكر على غرار بعض الحكماء. يدرك المرء ان شيشرون قلما اثنى على هذا الفظ الذي كان يلحن من اجل مزيد من الرعب.

كان قد رضي بالقيصر الذي لم يكن ينقصه ليصبح حكيما سوى احتقار السلطة. الخطبة الثانية la 2ème Philippique تتكلم على الديكتاتور بحنين تقريباً حينما تقارنه بانطوان. احتاج الأول الى العبقرية ليسقط الجمهورية. ولكن سطحية انطوان كانت ستكفيه ليبقيها ارضاً. ولكن هذه السطحية نفسها كانت تعطيه الأمل. لم يكن انطوان قوياً كالقيصر. كان اصدقاء الديكتاتور القديمون يحتقرونه. كان اوكتافيوس يقاتله. كان المرء يستطيع ان يأمل بتوحد اناس كثيرين ضده، هوذا قد يشرح سياسة شيشرون كما تعبر عنها بشكل خاص الخطبة الثالثة la 3ème Philippique قال: لنستغل الفرصة. حقق انطوان الاجماع ضده. اغلبية القيصريين يكرهونه. بروتوس واتباع بومبيوس يملكون فيالق وزعماء. يكفي توحيد قواهم مع الجيوش القيصرية لأوكتافيوس Octavien، الاعلان بوضوح ان انطوان هو عدو عام. لن يستطيع المقاومة. لانجازالوحدة المقدسة، لا بد من زعيم يمتلك في نفس الوقت صداقة القيصريين وحزب بومبيوس Pompée القديم وصداقة اوكتافيوس وبورتوس. فكر شيشرون ان يكون ذاك الزعيم.

هو لا يملك موقعاً رسمياً ولكن لصوته نبرات اكثر اتقاداً من اي وقت مضى. يدعو للنجدة كما فعل فيما مضى اثناء ليالي كاتيلينا Catilina. يعرف ان الوقت يداهم. اللحظة حاسمة. قواد Gaule واوكتافيوس نفسه ليسوا حلفاء اكيدين لمجلس الشيوخ. ولكن إذا جاء بروتوس للنجدة؛ إذا تمت الوحدة، لا يبقى سوى لحظة ليميل الميزان ضد انطوان، اولئك الذين يترددون سينضمون الى القوة. انطوان لن يعود شبيهاً بالقيصر، ذلك القائد الشديد البأس ذي الفيالق المختلفة في إيطاليا، بل سيكون شبيهاً بكاتيلينا الذي هرب مع جيش صغير الى جبال توسكانيا. يجب انتهاز الفرصة، يجب امالة الميزان. البيان وحده يمكن ان يحقق ذلك. شيشرون يختبر جهوداً هائلة، بهذا المعنى. لم يلعب دوره في اي وقت بجرأة أكبر. إنه الأول بين الرومان. لا يملك سلاحاً ابداً. ولكن كلامه يجند جيوشاً خالقاً تياراً هائلاً من الوحدة. هذا العجوز المنقذ استعاد افراحه القديمة. تضيء المشاعل امامه من جديد. يرى دروع الفرسان الذين يواكبونه ملتمعة. إذ يظن انه قد غلب السلاح بالفكر، فهو يحيي الحرية.

موت صامت

كان على وشك الانتصار في اذار، هزمت جيوش مجلس الشيوخ انطوان، حررت Modène. ولكن القنصلين Hirtrus وPansa (بنسا) كانا قد قتلا، كانا بين الجيش الحليفين الأكثر وفاء لشيشرون، أحسّ بموتهما ان مراقبة الاحداث كانت تفلت منه. الا ان Brutus كان يرفض العودة الى آسيا كرهاً بوريث القيصر اوكتافيوس وربما حذراً ايضاً، اولأنه كان يريد ان يجامل انطوان بدلاً من منافسة الشاب. الفرصة كانت تفوت.

الآن تنهار الوحدة حوله. نشاهد اوالية عنيدة لثورة عسكرية منظمة ضد ضعف السلطة المدنية نفسها. لم يكف شيشرون منذ معارك Modène عن وعد قادة الامبراطورية بما قد يسمونه اليوم نجوماً. أقر مجلس الشيوخ تمثالاً لـ Lépide (ثم هدمه حين خان)، وجه رسائل مجاملة الى Plancus حاكم الليونيين Lyonnais الذي أجاب بانزعاج، ولكن القادة العسكريين اهتموا قليلاً بالشرف الذي يمنح لهم من جراء ضعف السلطة المدنية، يعرفون ان القوة تعود لهم ويتفقون فيما بينهم، حيث ان المدنيين الذين ينطق باسمهم شيشرون لم يعرفوا انجاز الوحدة. مجلس الشيوخ يملك ورقة اخرى: حرمان القادة العسكريين من جنودهم. ولكن اولئك محنكون مقاتلون محترفون وقليلو الحساسية إزاء البلاغة المدنية. من كثرة الضرائب يجمع مالاً كافياً لشرائهم ولكنهم يأملون جيداً بطرق اكثر مباشرة من تلك التي أوحى بها قادتهم. والجميع، عند Lépide وعند Antoine وعند Octavien يبقون متعلقين بذكرى القيصر.

هنا، يقدم اغراء جديد للخطيب: ابن القيصر بالتبني يرى مجلس الشيوخ ضعيفاً، فيطالب بحكومة القناصل Le Consulat، ويعرض على شيشرون أن يتقاسماها. هذا الفتى ذو الثمانية عشرة وراءه جنود. يطالب بالملكية باسم القيصر. شيشرون يرى نفسه مدعواً لاستعادة نفوذه عندما يصبح اوكتافيوس الامبراطور المعظم. سيأمل لاحقاً بان يعرف استخدام هذا الطموح.

وبالفعل، حين قدم العرض، في منتصف عام ٤٣ لمجلس الشيوخ الذي رده بقي شيشرون صامتاً. أما بروتوس فقد لامه بشدة في الرسائل

الأخيرة التي وجهها إليه على طموحاته الحكومية تلك. وخلال هذا الوقت، دعاه شيشرون لنجدته.

رسالته الاخيرة لبروتوس مؤثرة. الحـرب قاسيـة... لا نملك مالاً... الأغنياء لا يريدون ان يدفعوا لينجوا بانفسهم... اوكتافيوس الشاب يمنحني الهموم. كنت قد ضمنت شجاعته. ولكن لا يكفل المرء كمبلغ من المال. انني اخشى كثيراً أن أتهم بالطيش. لقد افلت مني، وزيادة في المتاعب فإنني مضطر ان أعدّ خططا لانجو من هذا الشاب. لم يقل اي خطط، ولكنه اضاف: تعـال حالاً. الأمل الوحيد لحكومة القناصل هو الآن في بروتوس. ولكن بروتوس Brutus عنيد، بقدر ما شيشرون متذبذب. ليتأكد، ربما، من القوة الحقيقية لحكومة القناصل، أراد أن يرسل إلى روما، بمهمة استطلاعية، الفتى Marcus الذي كان يعمل في مجلس قيادة مقدونيا Macédonie. ولكن الخطيب أوقف سفر ابنه. علم بروتوس Brutus حينذاك أن حياة شيشرون هي في منتهى الخطر. فتحركت جيوشه نحو الشرق.

لا نستطيع انتقاد حيلته. ولكن يبدو ان Brutus قد خسر فرصة حاسمة. لم يرد ابداً الانضمام لـ Octavien. إذ ان وفاءه الرواقي كان يمنعه من ذلك. وحين كان شيشرون يناقش في روما، كان يتحاور في اثينا مع الفلاسفة. كان يحتقر التحالف مع القيصريين وقد تم ذلك بخديعة، شيشرون، المخلص لمثله الأعلى،كان يرفض ان يترك ايطاليا، ان يسلمها كروما لحرب عامة. كان بروتس يجيب: «كل بلد تكون روما بالنسبة لي إذا عشت فيها حراً...»

ما هي الحرية؟ شيشرون وبروتوس لا يفكران إلا بها. والقيصر كان

قد مّجدها ايضاً. ولكن لم يكونوا يعطونها نفس المعنى. كان يدّعي القيصر بان يضمّنها للشعب بملكه. بروتوس، منسجمًا مع تقاليد Caton كان يرى ان الحرية، الاحترام الشديد للقانون والمؤسسات القديمة: «قد أقتل اي رجل، لو كان ابي، إذا كان يضع سلطته فوق القوانين.». لم يكن يعتقد شيشرون بالرغم من تقديره الكبير للتقليد، ان القوانين كافية وكان يفتش عن رجال خلّص الى حدٍ كافٍ ليدافع عنها. ولأنه كان طموحاً ويفتش، بخاصة عن تأثير الفكر، ظن ان يكون احد اولئك الرجال. ولكن لم يترك له متسع من الوقت ليثبت امكاناته.

حينما يقرأ المرء رسائل بروتوس، يعتقد ان شيئاً ما قد بقي من شعلة الـ Philippiques الكبيرة. منها المثل الأعلى الذي دافع عنه شيشرون حتى النهاية. «تهرب» يا بروتوس، كان الخطيب يكتب بمرارة. كانت معركة Philippes ستثبت العكس ولكن شيشرون كان احد الأوائل الذين سقطوا. لقد أفسح المجال أمام عروض أوكتاف في مجلس الشيوخ.

وحين مشى هذا الأخير الى روما، بدا شيشرون للمرة الأخيرة يعمل على انعاش مقاومة الدولة. ولكن المدينة سقطت بدون مقاومة. دافع الخطيب، بعد ذلك، عن قضيته امام الشاب الذي سخر منه ناعتاً إياه بالصديق الأخير. ثم اتت ليلة شيشرون الرومانية الأخيرة الذي حاول ايضاً مرة أخرى ان يجمع المجلس. في الصباح كان هارباً عندما القي القبض عليه في Gaéte. ولا نملك بعد ذلك سوى رواية موته هكذا نقلها Amyot عن Plutarque.

«اخذ القائد بوبيليوس Popilius معه، في الحال، عدداً من مرتزقته،

فكمن له ليلقي القبض عليه في آخر الممر. . . شيشرون الذي احس به آتياً امر خدمه ان يستسلموا ثم اخذ لحيته بيسراه، كما كان قد تعوّد، ناظراً في وجوه القتلة ذوي الشعر واللحى المشعثة والمعفّرة والوجوه الشاحبة من جراء المتاعب التي كانوا قد تحمّلوها بحيث ان عدداً منهم لم ينظر إليه عندما امر Antonius بقطع رأسه ويديه».

البلاغة والإبداع الأدبي

من الصعب أن نورد نصوصاً متتالية من آثار شيشرون لأن أسلوب الخطابة واسع فضفاض. لهذا نستميح معذرة لهذه الدّراسة التي قد تبدو أحياناً مثل الفسيفساء. خاصة وأن المقتطفات المتسمة بالإيجاز شاهدة على كثافة أفكار شيشرون وعلى غناها. إن مآثر الرجل كانت موضوع ترجمات عديدة ممتازة لم تترك لترجمتنا هذه إلا محاولة اقتفاء أثر هذا الأسلوب الرصين الذي يذكرنا «بغوته» من حيث الدقة والشمول، مما يعني أننا لن نتمكن من شرح جوهره العميق الرفيع مهما نشرنا حوله من نور.

لا يمكن شرح مآثر شيشرون ولا سيرته خارج إطار البلاغة. وقد كشف عن فنه في عدة مؤلفات له.

كان يتساءل عن الحقيقة لأن الكذب أو الريب يتطوعان لمرافقة

وسائل الإقناع (بله الدعاوة؟). كان يتفكر في الثقافة وموجباتها.

إذ لا يمكن الدفاع عن الناس بدون الإنسانية التي تبرر ذلك الدفاع. كذلك كان يبحث عن الجمال مقروناً بصفاء الفكرة فأدخل بذلك عظمة التفكير المدرسي في ميدان الإبداع الأدبي.

تهافت البلاغة

يبدو لي أن الرجال البله ذوي الأحلام الصبيانية لم يتمرسوا، في حقبة ما، بتنكب الشؤون العامة، وأن الرجال الكبار الفهماء لم يدافعوا عن الشؤون الخاصة ، فكان أن اهتم أفضل الرجال بإدارة القضايا العظمى فيما انصرف الآخرون بقدر من الكفاءة إلى الاهتمام بمنازعات الأفراد .

وحيث إن العادة طالما جرت على توسل الكذب ضد الحقيقة في مثل هذه الخلافات، فإن مداومة التكلم قد غذت تجرؤ المواطنين النخبة الذين ألفوا أنفسهم مضطرين للمقاومة على الوقاحة وعلى نجدة أصدقائهم.

أما في الخطابات، فإن تعادل المناقب أو تفوق بعضها حيناً كان يبدو أمراً من فعل المتكلم المعتمد على الفصاحة أكثر من غيرها إذا وضعنا محبة الحكمة جانباً، فكان ذلك يؤول إلى اعتبار صاحبنا هذا أهلاً لقيادة الدولة حسب رأي المجموع وحسب قراره الشخصي. من هنا كان طبيعياً وصحيحاً أن الرجال المندفعين المتهورين عندما تسلموا دفة السفينة تسببوا في حدوث أبشع حالات الغرق، بينما كان البلاغة تجني البغض والتهم.

نصائح إلى محام شاب

ستواجه بين الرجال رجلاً واحداً بليغاً متمرساً بالكلام، قد تجده أمامك حتى ولو لم تكن تعلم بوجوده، ولن تقوى على عرض قضيتك، في رأيي، حتى ولو لم يكن لأحد أن يرد عليك. . . أمام ذلك الرجل، عليك أن تلجأ حيناً إلى تكوين حجتك وحيناً إلى المقارعة والمدافعة بكل الوسائل، لو كنت مكانك، لأطريت براعته دون أن أخشاه، ولرفعت شأنه طالما أجدني مفتوناً به لا مهزوماً أمامه. لن تقلبني على عقبي أي من خططه، ولن تحبط دفاعي أي من مكائده، ولن تركبني أو تضعفني موهبته ولو حاول إلى ذلك سبيلاً. إنني عالم بمساعي صاحبنا كلها وبدورات بلاغته جميعها، فلطالما كنا معاً في قضايا ودعاوى أألّفَ بيننا بعضها أم باعد بيننا بعضها الآخر. وعندما يقارعني في المرافعة، سيظن رغم عظم عبقريته أن موهبته لن تؤثر في الحكم إلا قليلاً.

أما أنت كاسيليوس، فلكم سيختلك ويهينك، هذا ما يلوح لي. ولكم سيترك لك اختيار ما تفضل: هل حدث الفعل أم لم يحدث؟ هل هذا حق أم زور؟ مهما تقل فإن الجواب في غير صالحك. لكم سترتعد، وستبحث في الدجى عن آلهة سرمدية، رغم ذلك، ستكون حينئذ أفضل فتيان العالم.

وماذا سيكون عليه حالك، إذا راح يفند عناصر اتهامك ويعد على أصابعه مراحل القضية واحدة فواحدة! وإذا دبر الأمر فسواه وأنجزه وضع حله! في يقيني، أنك، ذاتك، ستغدو في خشية من أن تكون رميت بريئاً في المهالك. . .

لماذا يسمح لمحام أن يرجع عن كلامه؟

تبقى شهادة ضدي ذات أهمية كبرى: والمخجل أني كدت أرتضيها تمر بصمت، وحسبما يقال، لا بد من إبداء رأيي الخاص. لكنّنا لشد ما نخدع ذواتنا إن اعتقدنا أننا نجد أثر آرائنا المعتمرة بقدرتنا الشخصية واسمًا المرافعات التي قمنا بها أمام المحاكم، لأن هذه الخطب لصيقة بالقضايا والظروف لا بالرجال أنفسهم ولا بالمحامين. وفي الواقع، لو أن القضايا عينها قادرة على الكلام لصالحها لما كان ثمة لزوم لأي خطيب.

متشكك يجعل البلاغة تشتهر

سأعلمكم يا تلاميذي ما لم أتعلمه، وسأبدي لكم رأيي في كل ضروب البلاغة، فحسب ما أرى، أنه لرائع أن ينظر المرء إلى قدراته، وإنه لعقيم أن نحاول مشاهدة الفن. إذ الفن، في الحقيقة يتعلق بالمعارف. إلا أن عمل الخطيب كله يتعلق بالآراء المبنية على الظاهر وليس على يقين العلم. والواقع أننا نتكلم أمام جهلاء ونقول ما نجهله نحن أيضاً. ولذلك يكون للمستمعين آراء مختلفة حول موضوع واحد حسب الظروف، ومن جهة ثانية فغالباً ما ندعم نحن قضايا متعارضة، ولا يقتصر الأمر على أن يتكلم كراسوس ضدي أو أن أتكلم ضد كراسوس، في حين أن أحدنا يجافي الحقيقة طبعاً، لا يقتصر الأمر على ذلك وحسب، بل حتى أن كلانا يدافع تارة مع وطوراً ضد، في موضوع واحد، رغم أنه لا يوجد إلا حقيقة واحدة. إذن، كلما وجدتم أنه بوسعكم الاستماع إلي، فسأتحدث عن شيء في أمر يقوم على الكذب وقلما يبلغ اليقين، يتوجه إلى أوهام الناس بل إلى ضلالاتهم.

عظمة الخطباء

يقول كراسوس: «لا شيء أكثر غبطة من أن تأسر بالكلمة جموع الرجال، فتفتن ألبابهم، وتأخذ بناصية قرارهم أنى تشاء وتحولهم عما يشاؤون.

هذه السلطة ازدهرت وفاقت كل السلطات عند الشعوب الحرة، خاصة في المدائن الآمنة المطمئنة حيث سادت سلطة الخطابة ولما تزل».

وهل أكثر غبطة من ذلك، فعلاً؟

أن يقوم رجل واحد من بين العديد الغفير موحداً في ذاته ما وزعته الطبيعة على الجميع، منجزاً بمفرده ما كان على الجميع إنجازه... مثل هذا الرجل قليل قليل من الناس. وهل ألذ على السمع والفهم من خطبة رزينة تزينها أفكار حكيمة عاقلة في عبارات رنانة فاعلة؟

وأي صور القوة أبهى وأعظم من أن ترى حركات الشعب وقسطاس القضاة وحصافة مجلس الشيوخ منقادة لبلاغة رجل فرد يوجهها كما يريد ويؤثر فيها جميعاً؟

وهل ثمة أسمى وأشرف من إغاثة الملهوفين وإنهاض المسحقوين ومنح الأمان والإنقاذ من المهالك ورص صفوف المواطنين في الدولة؟

إنها أسلحة تلح علينا ضرورة حمايتها، للاحتماء بها من شر أولئك الذين تنقصهم المروءة، ولمعاقبة أولئك الذين يعكرون صفو حياتنا.

ولا يقتصرن كلامنا دائماً على الساحة العامة والمحكمة والـ: Rostres والـ Curies؛ فخارج هذه، لا أعذب ولا أروح للإنسانية من نقاش

يجري بغير ما تطرف في شيء! إنها ميزتنا الوحيدة الفضلى عن الوحوش الضارية: نتحدث في ما بيننا ونستطيع التعبير عن مشاعرنا باللغة.

كما لا شيء أكثر غبطة وأكثر استحقاقاً لبذل الجهد فيه، من قهر الرجال أنفسهم والتغلب عليهم في الميدان الذي يعتبرون أنهم متفوقون فيه على الوحوش، من قهرهم في ما يميزهم وما يعتدون به.

من الخطيب. (٣٠، ٨، ١)

شيشرون يختار البلاغة المثالية

لا ينبغي القنوط من بلوغ المثال، وعندما نكون بصدد الحقائق العليا، فإن أقرب الأمور إلى الأفضل يغدو أمراً عظيماً. أما أنا، وقد تعين عليّ أن أمثل الخطيب المطلق، فسأرسم رسماً كما لم يسبق أن كان عليه يوماً. الحقيقة، لست أبحث عما كان، لكني أتساءل عن طبيعة ما لا يمكن أن يعلى، عن طبيعة ذاك الكمال الذي يقذف بنوره حيناً ولكل منه بمقدار، فمنا من أصابه نصيب منه وافر ومنا من لم يحظ في مجرى البلاغة المتواصل من نوره إلا بقبس نادر. لكني سأطرح الأمر من حيث المبدأ، فليس هنالك بأي حال أي جمال لا يعلوه صورة نموذجية هي منه بمنزلة المظهر.

هذا النموذج لا يمكن أن يخترقه ثاقب البصر، ولا مسترق السمع، ولا أي حس آخر، ولا اتحاد لنا به إلا بالفكر والتأمل. إن بصرنا كما تعلمون لم ير شيئاً أكثر كمالاً من تماثيل فيدياس (. . .). لكننا نستطيع تصورها أكمل وأجمل. وذلك الفنان نفسه الذي تمثل جوبيتر أومينرف لم يتأمل نموذجاً بشرياً فيقلده، لكنه جعل إدراكه مركزاً ومتصلاً بصورة

مثالية من صور الجمال قابعة في ذهنه مملية مقتضيات التجانس التي تهدي فنه ويده. وهكذا، إذن، فكما في الأشكال والصور، ثمة فخامة وإتقان نتأملهما بالفكر حيث نجمع في التقليد بينها وبين ما لا تقع عليه العين، كذلك فإن ذواتنا ترى الهيئة المثالية التي تكون عليها البلاغة الكاملة وإن آذاننا تبحث عن صورتها: وهيئات الكائنات هذه، اكتسبت تسمية «فكرة» على يد أكبر أساتذة الفكر والكلمة: أفلاطون.

الثقافة العامة

على الخطيب الكبير أن يدرس كل ظاهرة من ظواهر الحياة البشرية ويقرأ عنها ويصغي ويناقش ويحسب لها الحساب طالما أنه يخوض تلك الحياة ويتخذ منها مادة لفنه. والبلاغة هي إحدى أعظم الفضائل. صحيح أن هذه الفضائل متساوية ومتشابهة لكن بعضها يمتاز على غيره ببريق الجمال، شأنها في ذلك شأن تلك القدرة التي قاربت علم الحقيقة فراحت تحول قرارات الفكر ورؤاه إلى ألفاظ تستحوذ على المستمعين لدرجة أنها تدفع بهم أنى تشاء. لكن كلما عظمت هذه القدرة، كلما وجب أن ترافقها الآدمية وأقصى درجات التعقل.

فإذا منحنا ثروة الكلمة إلى أناس تنقصهم الفضائل التي نوهنا بها، فلن نجعل منهم خطباء بذلك، وإنما نكون قد وزعنا أسلحة على مجانين شريرين.

الفيلسوف والخطيب

لقد تمجد سقراط من خلال نوعية تلاميذه. أما أرسطو الذي لم يغفل محاسبة سقراط أبداً فقد غير إطار معارفه تغييراً شاملاً ومفاجئاً وحوّر

أحد أبيات الشاعر فيلوكتيت الذي يقول: «إنه لمخجل أن تسكت وتدع البرابرة يتكلمون» جاعلاً البث يقول: «. . . وتدع سقراط يتكلم».

لقد زان أرسطو مذهبه بالجمال والنور وجمع شمول العلم إلى دربة الخطابة. وهذا ما لم يغب عن بال أحكم الملوك «فيليب» الذي اتخذه معلمًا لابنه الإسكندر ليبث فيه قواعد القول والفعل معاً. هـذا الفيلسوف الذي يقدم إلينا وافر المعرفة وطلق اللغة والذي ندعوه إذا شئنا خطيباً، يجعلني الآن أفضل العكس أي إطلاق لقب فيلسوف على الخطيب الذي يحوز على الحكمة متصلة بالبلاغة، إنني أفضل عكس التسمية دون أن أناقض نفسي؛ إذ لا يمكن امتداح لجلجة من يدرك الحقيقة لكنه لا يستطيع أن يعبر عنها بلسانه، ولا امتداح من لا تعوزه الألفاظ لكنه يتعثر بالمعارف. وإذا كان لا بد من خيار بين هذه السوءات فإنني أفضل، دون ريب، ضحالة العقل على ثرثرةالجهل. إنما، إذا بحثنا عمن يستجمع في ذلك مجمل النقاط، فإننا مجبرون على إعلان انتصار الخطيب المثقف والمهذب.

نقاط الالتقاء

إن طرق الإثبات هذه خاصة بالدعاوى إذ تشكل جزءاً لا يتجزأ منها ينبغي له أن يدخل في صميمها. ولما كانت تطبق عادة على مناقشات عامة فقد دعاها القدماء بالأسباب المشتركة. بعضها يشكل تهمًا قاسية (فظة) أو شكاوى ضد المساوىء والأخطاء ويبثها ولا من يرد، إنه مستحيل. إذ لا يمكن إطلاقها مثلاً ضد سارق أو خائن أو قاتل أبويه إلا إذا أمكن التثبت من السرقة أو الخيانة أو قتل الأبوين، وبغير ذلك فإنها

هراء وخراف. وبعضها تكون بفعل التضرع والدعوة إلى الرحمة، لكن بعضها الآخر كناية عن مناقشات رياثية يلجأ فيها إلى التحليل الطويل وتعميم المشكلة ودعم ما هو مع وما هو ضد. هذا النوع من الممارسة في أيامنا يخص المدرستين الفلسفيتين اللتين ذكرتهما (الأرسطوية والأكاديمية)، وقد كان عند الأقدمين صنعة الأساتذة الذين كانوا مطالبين بإيجاد وطريقة كاملة للتحدث بطلاقة في شؤون الساحة العامة.

غرابة الولع الخطابي

ولا يجوز أن يعاني المستمع ويكره ويحسد ويخاف وينجر وراء البكاء ويسعى وراء الشفقة إذا لم تنطبع وتترسخ في ذاته هو تلك العواطف التي يريد الخطيب إثارتها في القضاة.

فإذا كان يجب أن تلهب آلاماً زائفة، وإذا لم يكن في هذا الضرب من الخطب أي معنى سوى المحاكاة والتقليد والنسخ المزور، فعسانا أن نبحث إذن عن فن آخر أسمى. (...) وليست بآية كبرى أن يقدر أمرؤ على أن يغضب ويتألم وينقاد لكل ما في النفس من حركات، فيما الأمر يتعلق بشؤون الغير؛ إن للأفكار والنقاط التي تعملونها في الخطبة قوة هائلة تجعل الكذب والتمريض بلا فائدة. وإن طبيعة الخطبة بعينها التي تستعمل لملامسة شغاف الآخرين لتجعل الخطيب ذاته مضطرباً قبل أي من مستمعيه. فلا نعجبن إذا رأينا ذلك يحدث في المرافعات والأحكام حينما يكون أصدقاؤنا في حرج أمام الجماهير المحتشدة في المدن، وفي الساحة العامة حيث لا محل لشهرة القريحة وحدها بل إن ثمة قيمًا أثمن كالأمانة الخالصة والواجب والضمير المهني التي تظل رائدتنا،

حتى لو كنا بصدد الدفاع عن أبعد الناس، فلا نعاملهم كغرباء ما دمنا نريد أن نمضي أخياراً. وأعود فأكرر، لا يشدهنا ذلك، فما من شيء مجازي كالشعر والمسرح والفن التمثيلي، مع ذلك كثيراً ما رأيت عيني الممثل هناك لامعتين تحت قناعه.

الضحك والبلاغة

المزأة، في ما يتعلق بمداه وحدوده ، إن شئتم، ما ينفك في حالة من الخزي والشناعة. يمكن أن يضحكنا فقط من ليس مخزياً بذاته وإنما يجعلنا نلاحظ بعض الخزي عندما يكشفه أمامنا.

يتعين على الخطيب أن يثير الضحك، فالمزاج الظريف نفسه مدعاة للتعاطف مع المتحلى به وحدة الذكاء وسرعة البديهة المركزة غالباً في كلمة، ما تثير دائمًا إعجاباً يأخذ بمجامع القلوب خاصة ضمن جواب، وأحياناً في المهاجمة حيث يحطم الساخر خصمه ويربكه ويضعفه ويرعبه فيدحره. إن هذا ليظهر الخطيب مثقفاً مدققاً جيد النبرة، ما دام يدع القوة والغم ويزيل أسباب العداوة بالهزل والضحك في حين يصعب ذلك بالإثبات وتقديم الأدلة. ما ليس يرتضي الضحك هما الخبث الهائل المقرون بالجريمة والبؤس الأقصى. فالخبيث يستشعر جروحاً أبلغ من جروح الضحك. وينبغي الانتباه إلى ضرورة مراعاة العلاقات المتبادلة بين الناس لتحاشي عبارات كلمات حمقاء ضد أناس محبوبين، ولا ينبغي التلاعب بالتعساء ولو صدفة على الأقل لئلا تؤدي سخريتنا بهم إلى تصديقهم ما ليس فيهم.

كمال الطبيعة

إلا أن الإعجاز الباقي فوق العقل والذي وصفته الطبيعة في كل شيء تقريباً، إنما يتجلى في اللغة أيضاً: ومن يحمل في ذاته الخير العميم فإنه يفوز بالعظمة وحتى بالقدرة على أن يفتن الناس ويسحرهم. إن تنظيم الكون كما هو عليه والعالم كما هو قائم لفي سبيل السلام وفي سبيل صيانة الكائنات جميعاً: فالسماء كروية، والأرض في الوسط مدعمة بقوة ذاتية وبطاقة دافعة تتفرد بهما، ومجرى الشمس الدائري (. . .)، والقمر القابس من نورها بمقدار لقربه أو بعده عنها (. . .). هذه الكائنات بهذه الخصائص، لها تلاحم يقضي عليه أقل تغيير في توازنها؛ إنه جمال لا يمكن أن نتصور شيئاً أكمل منه ولا أن نرى أبهى. الآن، عودوا بانتباهكم إلى هيئة الإنسان وصورته وإلى غيره من الكائنات الحية. سترون أن أياً من أجزاء جسمه لم يركب إلا حيث يلزم وبأن جماله، في مجمله، قد أتمه عليه الفن لا الصدفة، وماذا عسانا نقول عن الأشجار حيث الجذع والأغصان والأوراق عاملة جميعاً على صيانة الطبيعة؟ وهكذا أنى تلفت فثم جمال وثم سحر لم يغب عن أي جهات الكون. لكن، لندع الطبيعة ولننظر في فنوننا (. . .). فالأعمدة دعائم للمعابد والأروقة لكنها تمتلك الوجاهة أكثر من امتلاكها الخير. إن ذروة الكابيتول الرائعة وذرى باقي المعابد، لم تبن للروعة والسحر بل للضرورة واللزوم. ففي الواقع، ابتدأ البحث عن وسيلة يمكن بها للماء أن يجري على جانبي السطح وأتت وجاهة الواجهة بعد منفعتها، تماماً كما لو أن الكابيتول شيد في السماء حيث لا يسقط المطر فإن واجهته كما يخيل لي كانت منقوصة الوجاهة. هذا هو الشأن في كل أجزاء الخطبة: فالمنفعة والضرورة تستلزمان رقة خاصة ممزوجة بالأناقة. . .

الجمهور ناقد الخطيب

لم يتمكن ديموستين من الكلمة التي نسبت إلى الشاعر الشهير أنتيماك. فقد دعا المستمعين وقرأ على أسماعهم ذلك الديوان الضخم الذي تعرفونه فما كان من الجمهور إلا أن غادر المكان واحداً إثر واحد باستثناء أفلاطون. وقد صدق إذ قال: «لن أقرأ بعد منه، فأفلاطون يساوي عندي مائة ألف مستمع». والقصيدة الشعرية بتعقيداتها لا تتطلب إلا استحسان عدد قليل، أما الخطبة الجماهيرية فينبغي أن تحوز على تقدير المجموع. ولو أن أفلاطون هذا واصل الإصغاء منفرداً إلى ديموستين بعد أن تركه كل الجمهور هناك فلم يكن لينبس ببنت شفة (. . .). هكذا تسير الأمور، فلو أن النايات لا تطلق أي صوت عندما ينفث فيها العازف يفكر العازفون في أن يطرحوها أرضاً، مثلها في ذلك مثل آذان الجماهير التي ليست إلا نايات بالنسبة إلى الخطيب.

دقة التعبير الحقيقية ليست وقفاً على الرصانة

إذا كان من شأن لغة ركيكة منقبضة أن تحدد دقة التعبير فحبذا لو كان أولئك الناس مرهفين! لكن بينها لا يتدخل هؤلاء إلا في صغائر القضايا أمام قاض واقف، فإن المرافعات الكبرى تتطلب نبرة مليئة وأشد بأساً. وفي رأيي، فإن على الخطيب أن يكون محظوظاً بحيث تمتلىء القاعة منذ اللحظة التي يجري فيها الإعلان عن اعتزامه الكلام، وبحيث تغص المحكمة، فيتنازل الكتبة عن مقاعدهم بإذن خاص، فالجمهور غفير والقاضي منتبه بغير حراك، فإذا ما انبرى المتكلم خيم صمت مطبق على القاعة ثم علا الغناء وصيحات الإعجاب، والضحك

إذا أراد وإذا شاء فالبكاء! (. . .) فأعلموا أن من يحصل على هكذا نتيجة، هو خطيب مرهف، وأن هذا كما نعلم؛ كان شأن بيريكليس وهيبيريد وإيشين وحتى ديموستين ذاته.

البلاغة التامة تتضمن كل أشكال الجمال

لنكرر القول بأنه سيغدو بليغاً ذلك الذي سيعبر عن صغائر الأشياء بنبرة متواضعة وعن وسطها بنبرة واضحة وعن كبرياتها بحدة ورصانة (. . .). وليس ثمة أي نوع من الحرارة الخطابية إلا وتجدونه في خطبي فإن لم يكن في أحلى صوره فإنه يكون في صورة التجربة والمسودة.

لسنا أمام الهدف لكن مستلزمات بلوغه ماثلة أمامنا، ولسنا نتحدث عن أنفسنا اليوم بل عن البلاغة؛ هنا نحن أبعد ما نكون عن الإعجاب بنتاجنا، نحن عسيرون جداً وذوقنا صعب لدرجة أن ديموستين ذاته لم ينل إعجابنا؛ فغالباً ما أنبرى وحيداً من بين الآخرين جميعاً خائضاً في كل أرجاء البلاغة ومع ذلك فلم يملأ عليّ الأذنين إلى الآن، ولا أدري كم سيكون انتظارهما طويلاً وجشعاً وكم سيظل يطلب ما لا حدود له ولا نهاية.

البلاغة والاستعمار

وإليك البلاغة في حيز التطبيق. دورها مزدوج. إنها تكشف القناع. إنها تهدىء. في الحالة الأولى هي في صالح المستعمرين، وفي الثانية تخدم المستعمرين. في روما، شيشرون يعرف كيف يتهم. في الريف، كان إذا سئل أجاب: لا شيء يعادل نقاشاً جيداً حول طاولة...

واحد من أعيان صقلية يرمي بالخزي لرفضه بعض التماثيل في فيريس

كان ذلك في أوج الشتاء، الطقس صقيع، كما أخبركم بذلك سوباتر Sopater بنفسه، والمطر يهطل غزيراً؛ عندما أمر صاحبنا رجاله بإلقاء «سوباتر» من على الرواق، وطرحه في الساحة العامة وتركه عارياً (...). وفي تلك الساحة، كما في معظم مدن صقلية تقريباً، كانت ثمة

تماثيل فرسان لآل مارشيلي؛ اختار من بينها تمثال كايوس مار شيلوس الذي كان كرمه على تلك المدينة كما على أريافها نعمة حديثة وأثراً بيناً وعظيماً. لقد وضع سوباتر على هذا النصب ـ ولأن هذا الأخير من كبار الأعيان وقد شغل أعلى منصب في القضاء ـ فقد وضعه على حصان ثم أوثقه. إن عذابه لما يبارح خواطر الجميع: رجل مقيد عار، في وضح النهار، تصفعه الريح والمطر ويضنيه الزمهرير. لم يكن لهذا الظلم من نهاية ولا لهذه الفظاظة من آخر طالما أن الشعب وإجماع الأكثرية، الذين اهتزوا إشفاقاً من هول ما يرون، لم يجروا مجلس الأعيان على أن يعد الشقي بذلك التمثال الشهير من تماثيل عطارد. بل كانوا يتوجهون بالدعاء ليأتي زمن ينتقم فيه الآلهة السرمديون ويأخذون الثأر بأيديهم؛ إنما في انتظار ذلك، ألا ينبغي تحاشي قتل بريء؟

في توسل غافيوس بوجه التعسف

قد جلد رجل بالمقرعة في وسط ساحة مسّينا العامة: أيها القضاة، هذا مواطن روماني. ولم يكن لهذا الرجل إلا شكوى، إلا صرخة في لجة آلامه وبين فرقعة الضربات: أنا مواطن روماني. كان يظن أنه لو ذكرهم بحقه في المواطنية لارتفعت عنه الضربات ونجا من الصلب. لم يستطع أن يرد عنه عنف المقارع بالترجي، وأسوأ من هذا كله، أنه كان كلما ندب حظه واستغاث باسم المدينة، كلما أسرعوا في إعداد الصليب،أجل الصليب، لهذا البائس المنكود الذي لم يسبق له العهد بأيٍّ كهذا البلاء. يا اسم الحرية المعشوق! يا قانون مدينتنا الأثمن من كل شيء! يا شرعة بورشيا ويا أنت يا شرائع الغراك! Les Graques يا أنت، أيتها القدرة

المنبرية، طال شوقنا إليك، ولا بد يوماً أن تعودي ملك عامة الشعب الروماني.

رسالة إلى حاكم آسيوي

من جانبي، يبدو لي أن على الرؤساء أن يركنوا دائماً إلى هذا المبدأ: أولئك الذين هم تحت حكمهم ينبغي أن يكونوا سعداء ما وجدوا إلى إسعادهم سبلاً (. . .) - يتعين على من يمارس سلطة أن يخدم صالح أولئك الخاضعين لسلطته وأن يؤمن نفعهم، سواء من كان يمارس السلطة على حلفاء ومواطنين ومن يمارسها حتى على العبيد، بل على دواب ليس لها كلام. إني أرى، ويرى الجميع، أنك تبدي منتهى الغيرة على هذا الواجب. فالمدن لم تعقد أي قرض جديد، والكثيرات، أنت اعتقت رقابها من ربقة قروض قديمة باهظة فادحة، والكثيرات غيرها كانت خراباً شبه مهجورة فبعثت فيها الحياة، -إحداها أجمل مدن إيونيا والأخرى أبهى ما في كاريا؛ إنهما ساموس وهاليكارناس -، لا ثورة في أي مكان، ولا اضطراب لحبل الأمن، إنك تحرص على أن يتولى إدارة المدن مجالس من أرستقراطيتها (. . .). لقد حل السلام في المقاطعة كلها (. . .). أما النفقات والأعباء فإنها موزعة توزيعاً عادلاً على كل القاطنين ضمن حدود تلك المدن؛ والكل في وسعهم أن يدخلوا عليك بسلام آمنين؛ وتصيخ السمع لكل الشكاوى، لا كتب ولا عزلة إن في مجالسك ومحكمتك هذه حيث تستقبل الشعب أم حتى في بيتك بل وفي غرفتك، وخلاصة الأمر، أن لا عسر ولا قسوة في ظل سلطتك بل الكل مغمور رحمة ورقة وشهامة . . .

هذه المقاصد وتلك الحمية تخوض تجربة صعبة مع كبار المتعهدين الزراعيين (. . .).

ولعل النجاح في إرضاء هؤلاء العشارين، خاصة عندما تقع عقودهم في الخسارة، والنجاح في الحؤول دون موت الريفيين، أمر، تأمل فيه يبدو نعمة من فضل الله، وإنها لفضيلتك (. . .). وإذا كان المال واسم العشارين غالباً ما يطيران بروح واحدة، فإن كل ما عداهما يحتفظ، لا ريب، بإطلالة عذبة تضفيها عليه حكمتك ونصائحك. إن للمدن أن لا تعتمد قانون الموجبات والعقود في إجراء عقودها مع العشارين بل أن تتوخى مصلحتها في التحرر وفي التخلص من تبعاتها.

وأنت بذاتك، كما فعلت مجيداً ما تزال، قادر على الالتزام بتذكير الناس كم هي عظيمة فضيلة العشارين، وبكل ما نحن مدينون به لرابطتهم، وبالتقريب بينهم وبين اليونانيين بواسطة سلطتك وذيوع صيتك في وفاء الديون والحقوق، محاذراً اللجوء إلى العنف في استعمال هالتك وسلطتك الشرعية، ولكن بما أن لك عليهم يداً بيضاء وأنهم مدينون لك بكل شيء، فاطلب من هؤلاء أن يحفظوا الصداقة التي تربطنا بالعشارين وأن ينقدوها بما عرفوا به من اللطف والمعروف.

إن أفلاطون، أمير القريحة والعلم، قد رأى بأن المدن ستكون لا بد سعيدة إذا تسنم الحكم فيها رجال علماء حكماء أو إذا كرس رؤساؤها دراستهم كلها للعلم والحكمة.

لقد رأى أن هذا الحلف بين السلطة والحكمة قادر على ضمان سلامة المدن. وهذا ما قد يأتي يوم تنعم جمهوريتنا بكاملها فيه.

كيف نحمي الجمهورية

أصبح شيشرون قنصلاً. وها هو يناضل ضد كاتيلينا. ثلاثة من مظاهر نشاطه تظفر بالإعجاب: يحاور الشعب فلا يرضخ ولا يتهرب. يتلذذ بإعمال مواهبه في القدح. ويعتمد أسلوباً خلقياً أيضاً لوضع الرومانيين أمام مسؤولياتهم في ما بعد وإثر النفي، فقد عمق مفاهيم نشاطه. وفي كل تحرك أمر عجيب، لكن، بشكل عام، فمن يحاول إقامة اتحاد يجد نفسه وحيداً أمام ذلك الهدف.

القنصل الشعبي

لقد صرحت في مجلس الشيوخ بأني سوف أتصرف كقنصل شعبي. وهل ثمة ما هو شعبي أكثر من السلم عندما تنعم فيه لا الكائنات الحية وحسب بل وحتى بيوتنا وحقولنا؟ هل ثمة ما هو شعبي كالحرية؟ ليس الناس فقط هم الذين يفضلونها على كل ما عداها بل وحتى الحيوانات

تفضلها. هل ثمة ما هو أكثر شعبية من الراحة ؟ حري بكم أن تستمتعوا بقسط من الراحة بعد أن تبنيتم مجابهة أشق المصاعب، وبعد مآثر أجدادنا، أولئك الرجال ولا أشجع - لكن أن ترتاحوا خاصة إذا تأمن في رخائكم تآلف السلطة والكرامة (. . .). فكيف إذن، أيها المواطنون، كيف لا أكون شعبياً وأنا أرى كل هذه الخيرات من سلم مع الخارج ومن حرية، ومن محمود مزاياكم ورفعة عنصركم، ومن طمأنينة ورخاء في الداخل، ومن كل غال ونفيس؛ أراها جميعاً في حمى قنصليتي بل، وإذا شئتم القول، فتحت إشرافها ؟

ذلك أنه لا يمكنكم إطلاق الصفة الشعبية والطابع النافع على تلك النعم التي ذكرتها لأنها قد تكون سراباً من كلام، إلا إذا كان تحقيقها لا يقلق وقد لا تتحقق بإرهاق الخزينة، كما لا يمكن، في الحقيقة، إطلاق الصفة الشعبية على تخريب المحاكم وعجز القضاء وإعادة أموال المحكوم عليهم إليهم خلافاً للقوانين.

البلاغة تسقط القناع عن كاتيلينا

وأخيراً، سينتهي بك المطاف يا كاتيلينا إلى حيث كانت تشدك أهواء جنونك المكبوتة. ولن يؤلمك هذا الرحيل بل سيعود عليك بلذة فوق التصور لا عهد لي بمعرفة مثيل لها؛ لم لا ، وقد خلقت أصلاً لهذا الجنون، وله أعملت إرادتك، وله احتفظ بك القدر؛ فلا أنت تحب السلم ولا أنت تهوى الحرب إلا من كانت همجية مجرمة. لقد جمعت حولك حفنة من الأشقياء طلبة الثروة والطموح. أية فرحة هي فرحتك

بينهم، وأي رونق هو رونقك! أي إدمان أنت عليه إذ تنظر إلى كل أزلامك وإذ تستمع إليهم فلا ترى ولا تسمع أي آدمي بينهم، أقل آدمي! لهذه المعيشة قد أعددت نفسك، وصدق من قال إنك كنت تفترش الغبراء لتعتاد القسوة فتتمرس بالقتل، وأنك كنت تسهر لا لتضليل الأزواج بجعلهم يطمئنون على نسائهم فحسب بل لتسطو على أموال الأغنياء الآمنين، فهاك، بوسعك الآن أن تبدي عرافتك في تحمل البرد، والصبر على الجوع، ومكابدة الحرمان، إذ سينزل بك من كل هذا الكثير، الكثير الذي لا يطاق.

ما بعد النفي: راحة مع الكرامة

إن الذين سعوا إلى الشهرة من خلال تولي الوظائف العامة وإتقان القيام بأعبائها. هم دائماً صنفان: الأولون من عملوا على التقرب من الشعب والظهور بمظهر شعبي، والآخرون هم الاستقراطيون.

فالذين أرادوا أن يستسيغ العامة أقوالهم وأفعالهم اعتبروا شعبيين أما أولئك الذين كان سلوكهم يحظى برضا أفضل المواطنين فاعتبروا ارستقراطيين. ولكن، من هم أفضل المواطنين؟ إذا حاولتم إحصاءهم فإن عددهم لا يحصى، وإلا فكيف يتسنى لدولتنا أن تنهض. إنهم أوائل أعضاء المجلس العام والذين يتلونهم، ورجال الهيئات الكبرى الذين تفتح لهم أبواب مجلس الشيوخ، إنهم سكان البلدات والريف الروماني، إنهم رجال الأعمال، حتى أن في هذه الأرستقراطية عتقاء من عبودية سابقة (...).

هؤلاء جميعاً ارستقراطيون، الذين ليسوا ضارين ولا سيئين بطبيعتهم

ولا نزقاء ولا مقيدين بتناقض في بواطنهم. هؤلاء الذين إذا استلموا دفة المدينة يخدمون إرادة أهلها ورأيهم ومنفعتهم، هم حماة الارستقراطية، وهم يصبحون من بين الارستقراطيين الأجزل احتراماً والمواطنين الأكثر بروزاً ويغدون من أمراء المدينة. إذن، فما هو الهدف المحدد لهم فيضعوه نصب أعينهم إذا هم تسنموا الحكم، لكي يتوجهوا شطره ؟ إن أغلى ما يقيض للرجال الأنقياء الصالحين السعداء هو الراحة مقرونة بالكرامة. وإن الذين يصبون إلى هذه المنزلة هم جميعاً من أهل الارستقراطية، وإن الذين يبلغونها يرتفعون إلى مصاف أعظم الرجال ومراتب حفظة المدينة.

وبالفعل، فإن الكرامة التي تلازم القيام بالأعباء العامة لا يجب أن تغوينا فننسى قسطنا من الراحة لكن علينا أن نهمل أي رخاء تأباه الكرامة.

وإليكم أسس الكرامة المرتبطة بالرخاء. إنها مجموعة عوامل لا غنى لمن يشغلون المراتب العليا من تركيز أعينهم عليها لحمايتها حتى بأرواحهم، وهي: الدين والهيبة وقدرة أعلى القضاة وسلطة مجلس الشيوخ والشرائع وأعراف الجدود وأحكام المحاكم وتطبيق القانون وحسن النية والمقاطعات والحلفاء وسمعة سلطاتنا الطيبة في أرجاء الامبراطورية والجيش والخزينة. هذه الأمور الجسام تستدعي نفساً كبيرة وعبقرية فذة وصبراً جميلاً. ممن يرغب أن يكون حاميها ورائدها.

أعداء الجمهورية

بين جمهور المواطنين الواسع جمهرة كبيرة تسعى، بدافع خوفها من القصاص على ما بذمتها من أخطاء، إلى الثورة على الجمهورية وإعادة

قلبها على عقبيها، وآخرون يدفعهم نزق فطري في نفوسهم إلى إذكاء الفتنة والنزاعات الأهلية، وغيرهم ممن أوجسوا خيفة على أملاكهم الموروثة جعلوا لسان حالهم: «من بعدي الطوفان» (. . .)، لقد كانت الجمهورية وما تزال عرضة لخطر قوي ومكائد أضخم من القوات والموارد التي تحميها، لأن الأشقياء والمتهورين ينطلقون مع أول إشارة، وقد يذكي انطلاقهم تحرك خاص بهم ضد الجمهورية، أما أهل الخير فلا أدري لما هم يثاقلون ويهملون معالجة أولى أسباب الحوادث، وفي النهاية لا تحركهم إلا الضرورة الماسة، وهكذا فقد يأتي عليهم حين من الدهر يفتقدون فيه إما كرامتهم وإما رخاءهم لأنهم أخطأوا إذ التمسوا التمهيد والتأجيل وإذ سعوا للحفاظ على راحتهم ولو بدون الكرامة.

جمهورية العدالة

كان شيشرون يتفكر في الملكية بينما كان قيصر يحلم في الظفر بها. وقد صاغ خطيبنا مذهباً صقله من خلال التجربة وعرضه في كتابه عن الجمهورية. إن الحكم الفردي يغدو ضرورياً في الجمهورية المتداعية. لكن لا بد من ضمانات للقانون والعدالة وربما لا بد من نفحة صوفية من شأنها أن تذكر الرؤساء بأن المثال الأعلى لابث في السماء.

خواطر عن الملكية والطغيان والإمارة

ألم تروا كيف يتحول ملك إلى سيد، وكيف أن رذيلة رجل واحد تحول نمطاً صالحاً من أنماط الحكم إلى أسوأ ما يكون ؟ في الواقع، فإن سيد الشعب هذا هو الذي يدعوه الإغريق بالطاغية. إنهم يودون لو يكون ملكاً من يسهر على الشعوب سهر الأب، ويجعل محكوميه ينعمون بأحسن ما يمكن من ظروف الحياة. وكما قلت، إنه نمط صالح من أنماط

الحكم، لكنه عرضة للانحدار والانزلاق نحو أسوأ الدساتير فساداً. لأنه، عندما يجنح هذا الملك إلى سيطرة أقل عدالة يمسي طاغية تكرهه الآلهة ويكرهه الناس فوق ما نتصور، كرههم لأشد الحيوانات ضراوة وافتراساً.

هذا ما جناه «تاركان» الذي لم يستطع زيادة سلطاته فأساء استعمال السلطات التي بيده وبخس العدالة فدمر دولته ذات النمط الملكي تدميراً شاملاً. وقد نتصور بالنقيض رجل دولة صالحاً حكيماً خبيراً بشؤون مصلحة المدينة وكرامتها يغدو كأنه موئل السلطة في الجمهورية والوصي عليها؛ هذا الرجل هو الذي ينبغي استدعاؤه ليعيد الأمور إلى نصابها ويقوم اعوجاج المدينة ويحكمها.

حاولوا التعرف على هذا الرجل. إنه القادر على صيانة الدولة بما يملك من قوة اتخاذ القرارات وبذل الجهود.

عظمة روما

أقر ببساطة أننا لم نستورد فنون كياننا من وراء البحار، ولكننا أنشأناها من مزايا عنصرنا وفضائل أرضنا. كما يقول الأفريقي، إذا قدرت مراحل التقدم التي اجتازتها جمهوريتنا حتى قدرها وصعودها نحو الصيرورة المثالية على طريق ونهج ترسمهما لها الطبيعة، ومزيداً على ذلك، لتجدن حجة على تمجيد حكمة أجدادنا إذا لمست أنه حتى ما حصلنا عليه من الخارج فقد جعلناه أفضل بكثير مما كان عليه في الأرض التي وجدناه فيها وفي الحالة التي ظهر فيها. ولتعلمنّ بأن الشعب الروماني ما اشتد بالصدفة بل بالحكمة والانضباط الخلقي وعارضه الحظ في هذا الدأب.

الدستور المختلط

حسبما أرى، فإن الملكية تمتاز على أنماط الدول الثلاث الأوائل. إلا أنها لتنحني أمام دستور يتم إعداده عن طريق دمج حسنات الدساتير الأخرى مزجاً عادلاً متوازناً.

في الواقع، ربما نجد في جمهورية ما عنصراً سامياً ملكياً، أو قطاعاً من السلطة معهوداً به إلى الشخصيات الكبرى، أو أموراً محجوزة لتقدير الأغلبية ولمشيئتها. هذا الدستور يتميز بادىء الأمر بالعدل ثم إنه مستقر، وثابت لأن أنماط الدول الأوائل تكتسب المساوىء بسهولة وأثناء تطورها اكتساب الضد من الضد: الملك يمسي سيداً، والارستقراطية تغدو طغمة، والديمقراطية تتحول إلى بلبلة واضطرابات، ومن جهة ثانية، غالباً ما يتحول نمط ما من أنماط الدولة إلى نوع آخر جديد، لكن، في هذه الجمهورية التي تتكون بفعل التوحيد والدمج المتناسق لا يحدث ذلك مطلقاً، طالما أن القادة لم يتسموا بسوءات فاحشة. في الحقيقة، ليس في هذه الجمهورية أي سبب للثورة لأن كلاً منتظم في صفه انتظاماً صارماً ولا ينظر تحته فلا يسقط ولا يتحطم.

مناقب الجمهورية الرومانية القديمة

(بعد سقوط الملك) عمل مجلس الشيوخ على صيانة الجمهورية بدستو يناسب أوضاع شعب حر، فجعل قليلاً من الشؤون منوطاً بتدبير الشعب وترك غالبيتها لسلطة مجلس الشيوخ حسب ما تقتضيه الأوضاع والتقاليد؛ فسلطة القناصل كانت تدوم سنة من حيث مدتها أما من حيث طبيعتها وحقوقها فكانت ذات شأو. وحرص شديد الحرص على

إعطاء الضمانة الرئيسية، ربما، لقوة النبلاء فكانت قرارات اللجان الشعبية بدون قيمة إن لم تقم بتصديقها سلطة الآباء (النبلاء).

قوانين من «دستور شيشرون»

تكون السلطة عادلة، والمواطن يطيع اقتناعاً ولا يرفض. يفرض القاضي على المواطن الضار المتمرد غراماتٍ تقييداً ثم جلداً، وذلك إذا ثبت القاضي من أن هذا المواطن لم ينصع ولم يكف عن الإضرار بعد أن نهاه الشعب أو سلطة أعلى من سلطة القاضي أو سلطة معادلة لسلطته ويبقى للمواطن حق الاستئناف أمام هذه المراجع كلها.

لا إعمال لحق الإستئناف بوجه من يتولى قيادة عسكرية، وكل ما يأمر به قائد يدير الحرب هو محق وقانوني...

يستحق السلطة الملكية الرجال الذين يترأسون أو يقضون أو يشيرون، أولئك هم الرؤساء والقضاة والقناصل، يملكون سلطة مطلقة على الجيش، لا يخضعون لأحد ولا ينصاعون لمخلوق: فالقانون الأعلى عندهم هو السلامة العامة...

إذاتلقى كبارالقضاة الذين هم في الحكم أوامر وصلاحيات وتفويضاً بناء على مرسوم من مجلس الشيوخ ومشيئة من الشعب، فإن عليهم أن يغادروا المدينة ويتولوا قيادة صحيحة لحرب عادلة. فيصونون الحلفاء وينضبطون هم وما ملكت أيمانهم، ويعظمون مجد الشعب ثم يعودون وقد تكللوا بالمدح والثناء.

تختار العامة عشرة رجال يكونون سنداً لها ضد العنف، وينزلون منها

منزلة الأسباط فيما يأمرون العامة به وما ينهونها عنه له قوة القانون، سيكون هؤلاء مقدسين، ولن تحرم العامة من هؤلاء الحماة الطبعيين.

يكون شأن مجلس الشيوخ خالياً من المساوىء ومثالاً يحتذى للآخرين.

أمام الشعب وأمام مجلس الشيوخ، ينبغي احترام الأصول... يتكلم الشيخ إذا أتى دوره إلى نظراته بلهجة معتدلة: إنه يدافع عن قضايا الشعب.

لن يكون أثر للعنف بين صفوف الشعب.

لن يسمح باقتراح قوانين خاصة (...) لن تقدم ولن تقبل أية هبة أثناء القيام بمهمة ولا عند إنجازها ولا بعده...

مناقشتان لدستور شيشرون

١ ـ يتساءلون عما إذا كان يستحسن قيام حاكم واحد على رأس المدينة له الطاعة على جميع الآخرين، إن أهل هذا الرأي جديرون بالاهتمام خاصة بعد خلع الملوك، وهم ينالون رضى أجدادنا.

لكن، وبما أن النظام العاهلي الذي كان سارياً قد تم رفضه بسبب مساوىء الملوك لا الملكية، أي أن لقب ملك هو وحده المرفوض، فإن الحقيقة التي يتضمنها ذلك النظام ينبغي أن تستمر، ولو أئتمر الجميع بأمر حاكم فرد. لهذا السبب كانت مدينة ثيولومب محقة في جعل الـ éphores يقفون بوجه الملوك، كما كانت مدينتنا محقة في نصب محامي الشعب بوجه القناصل (...). كينتوس ـ أنك تتكلم عن ألم كبير، لأن

نشوء هذه السلطة قد شوه مفاتن الأرستقراطية وأنمى حس العنف لدى الجمهور.

ماركوس شيشرون: (. . .) إن العنف الشعبي أدهى وأمر من قوة الأسباط، لكنها تغدو ألطف لو قيض لها قائد مما لو لم يقيض له. لأن القائد يفكر بأنه يسير بين المخاطر بينما ليس للشعب إذا اندفع أي وعي للخطر.

٢ ـ كما يمكننا أن نرى إذا راجعنا دروس الماضي؛ هكذا كان عظماء الرجال وهكذا كانت المدينة الدولة، وليس هذا بأصدق من الفكرة العزيزة على قلب أستاذنا أفلاطون: لقد قال بأن أي تغيير في طريق الأداء لدى المغنين يستتبع تغييراً في التركيبة السياسية عليه، أرى أن تبدلاً في مجرى حياة النبلاء وطريقة تصرفهم يؤدي إلى تبدل في وضع المدينة الدولة.

إن تبعات القادة السيئين تجاه الجمهورية لهي أشد التبعات في جلب الكوارث والمصائب! لا لأنهم يعملون السوء بأنفسهم وحسب بل لأنهم يشيعون سوءهم في المدينة، فليسوا مضرين لأنهم فاسدون في ذواتهم وإنما لأنهم كذلك مفسدون؛ إن المثل الذي يعطون أكثر إساءة من الخطأ الذي يقترفون.

القانون الطبيعي

إن أعلم الرجال قد ألفوا من المناسب أن يبدأوا العلم من القانون، وخيراً فعلوا، في ما أرى، إذا صحت مقولتهم بأن القانون هو المنطق الأسمى في الطبيعة الذي يأمر بما يجب فعله وينهى عن العكس. هذا

المنطق الذي عمقه التفكير البشري، وكمّله هو القانون. ولهذا يظنون بأنه تكون بفعل الأناة والتبصر (. . .). ولما كان خطابنا هذا كله يعالج موضوعاً يهم الشعب فلا بأس إن عبرنا حيناً بطريقة شعبية وإن أطلقنا اسم القانون على النص المكتوب الذي يحدد ما يقصده من منح أو منع. بعد هذا، إذا أردنا البحث عن أساس للحقوق فسنبدأ من ذلك القانون الأسمى القائم في كل العصور، قبل قيام القانون المكتوب وحتى قبل قيام المدائن ـ الدول.

وإذا لم تتول الطبيعة تكريس الحقوق فإن الفضائل تطير هباء. في الواقع، أي مكانة ستكون للحرية ولحب الوطن وللرحمة وللرغبة في كسب ثناء الغير وإسداء المعروف إليه؟ إن هذا كله ينشأ عن ميلنا الطبيعي إلى محبة الناس الذي يعتبر جوهر الحقوق. ولن يخسر الناس احترامهم فقط بل إن الآلهة كذلك ستخسر المعتقدات والأديان التي ندين لها بها؛ لأني احتم هذه لن تكون مصونة بالخوف وإنما بتلك الصلة القائمة بين المرء وبين الله. . .

للقانون الضخم عدالة ضئيلة

من الصعب السهر على أملاك الغير، مع أن كريميس تيرانس العَريق Chrémés يؤكد دون ريب أن كل ما هو إنساني ليس غريباً عنه، إلا أننا نعي ونتحسس السراء والضراء التي تصيبنا نحن أكثر من تلك التي تصيب الآخرين الذين يتراءون لنا من بعيد يفصلهم عنا فاصل شاسع: فيختلف تقديرنا لأوضاعهم عن تقديرنا للأقربين. لهذا، فإن القاعدة التي تحظر كل فعل مشكوك في إنصافه هي قاعدة صالحة: لأن للإنصاف

بريقاً ذاتياً بينما يسدل الشك ظل انطباع بانعدام العدالة . . .

ومن أنواع الظلم ما ينشأ عن المماحكة وعن تأويل القانون تأويلاً معيباً خادعاً، من هنا كان المثل الشهير الذائع في مناقشاتنا «للحقوق الكبرى مظالم كبرى».

شيبيون إميليان يرى في حمله شيبون الأفريقي وبول إميل بعد وفاتهما ويحدثانه عن الخلود

ومنذ أن حبست دموعي، استطعت أن أتكلم فقلت لبول إميلي: «أرجوك، يا أبت، يا أطهر الرجال وأفضلهم، إذا كانت هذه هي الحياة هنا (. . .)، فلما تراني أتأخر في مكوثي على الأرض ؟ ألا ترى أن علي الإسراع في وصلكم هنا(في السماء) ؟ أجاب: ليس الأمر كذلك. ما دام الرب الذي كل شيء تراه هو معبد له لم يطلق سراحك من سجن الجسد فإن معراجك إلينا موصد بوجهك. لأن الناس قد خلقوا بهذا القانون: إن عليهم أن يحافظوا على تلك الكرة التي تراها وسط المعبد والتي تدعى الأرض وقد وهبوا أرواحاً مستخلصة من هذه النيران الأزلية التي تسمونها الكواكب والنجوم ذات الأشكال المدورة والكروية التي تذكيها عقول إلهية والتي تتم دوراتها ومسيراتها بسرعة مدهشة. لأجل هذا كان عليك أنت ذاتك يا بوبليوس وعلى كل الرجال الأتقياء أن تبقوا أرواحهم في وظيفتها كحارسة للأجساد، وليس لكم، إلا بمشيئة من بثها فيكم، أن تهجروا الحياة البشرية لأنكم لو فعلتم لظهرتم بمظهر الهاربين من أداء الواجب الذي فرضه الله على الإنسان.

إن الدوي الذي يحدثه الكون في ثورته الهادرة لهو أكبر من أن تقوى على استيعابه آذان البشر تماماً كما لا تستطيع أن تنظر إلى الشمس وجهاً

لوجه فتبهر أشعتها حدة حواسك.».

لقد أدهشني ما سمعت وجعلني أحول ناظري نحو الأرض.

ويأتي دور الأفريقي: «أرى أنك الآن أيضاً تتأمل في مكوث الناس ومقامهم: إذا بدا لك مكوثهم قصيراً، كما هي، فتأمل دائماً في الحقائق السماوية التي ها هنا. احتقر الشأن البشري الذي هناك في الأسفل. أية شهرة ستنالها من كلام البشر وأي مجد ترجوه منه؟...

إذن تريد أن ترفع ناظريك وترى مقامنا ومكوثنا السرمدي، فأعرض عن الثرثرات المبتذلة ولا تعلق آمالك على مكافآت البشر: إن فضيلتك ذاتها بما لها من رونق ينبغي أن تدفعك نحو الجمال الحقيقي...

فاجتهد إذن وتفكر بأنك لست أنت الغاني بل هو جسدك. لست ممن يرى هذه الرؤية:

إن كيان كل فرد هو في روحه لا في هيئته التي يدل عليها ببنانه. فاعلم إذن أنك إله لو كان إلهاً كل من يملك قوة وشعوراً وذاكرة ومن يتنبأ ومن يحكم، ومن يعدل هذا الجسد ويكون عليه ولياً، كما يتولى على الكون هذا الرب العظيم أول كل شيء: وكما أن الكون الزائل في جزء منه يذكيه الله الباقي، كذلك فالجسد التلف تحركه الروح الأزلية...

اجعلها تتمرس في أفضل الأعمال وأفضلها أن تسهر على سلامة الوطن حيث تجد الروح طلاقتها ونشاطها، وتحلق تحليقاً أسرع في مكوثها ومقامها. ستغدو بديهتها أسرع لو حاولت، ولما تزل في الجسد، أن تنتصب لترى ما هو أبعد وتتأمل ما في الخارج فتنعتق في الجسد ما وسعها انعتاقاً.

مع الحرب الأهلية أو ضدها

شهد شيشرون خمس ثورات. كانت هذه مأساة حياته، وحياة بعض الآخرين ربما. من هنا الغم الكثير. سنرى من خلال هذه النصوص كيف أن العقل النيِّر لم يكف عن التراوح بين الضعف والثورة وحب السلام.

شيشرون يشرح لماذا فضل النفي على الثورة سنة ٥٨.

عندما أنجزت أعمالاً عظيمة وسط هذا الجمع من البؤساء، ألم يكن الموت، ألم يكن النفي أمام عيني ماثلين؟ ألم أكن أتوقع ذلك وكأنه قدر مشؤوم في كل لحظة من العمل؟ هل كانت لي مبرّراتي في التعلق بالحياة رغم السواد الهائل الذي لف شؤوني من انفصال ومرارة وسلب كل شيء، وتجريد من كل ما علي تجاه الطبيعة والثروة؟

هل كنت شديد الصلف والجهل منعدم التصميم والعقل؟ أما سمعت شيئاً، قرأت شيئاً، تعلمت شيئاً مما قرأت ومما بحثت؟ أما علمت بأن مجرى الحياة العملية قصير مداه أبدي مجده؟ (. . .) بلى، فكرت في هذا وفي كثير سواه، ولكني رأيت أنه لو كان موتي مضرا بمصلحة الدولة فلن يقوم أحد بوجه الخبثاء ويأخذ على عاتقه سلامة الجمهورية. لذلك فقد حتمت أني لومت قتلا أو حتى لو أذواني مَرَضي وأطفأني لأعطيت المثل على حماية الجمهورية التي ستلفظ أنفاسها معي، تعيش ما عشت وتموت بموتي (. . .).

إذن، لقد أنقذت الجمهورية برحيلي، أيها القضاة: لقد جنبتكم وأطفالكم المجازر والتخريب والحرق والنهب حين رضيت لنفسي المعاناة والحداد: فأنا وحدي، أنقذت الجمهورية مرتين: الأولى حققتها بجاهي والثانية بشقائي.

قبل فارسال: جهود الوساطة

منذ وصولي إلى المدينة تفكرت بثبات وقلت وفعلت كل ما من شأنه تحقيق الوفاق. لكن جنوناً مستقراً كان مطبقاً ليس على الخبثاء وحسب بل وحتى على من يعتبرون من أهل الخير: لقد أرادوا القتال وكانت صيحتي أن لا شيء أسوأ من الحرب الأهلية. (. . .) إليكم الشروط التي تقدم بها قيصر: على بومبي أن ينصرف إلى اسبانيا وعلينا أن نسرح الفصائل التي كانت تحمينا وأن نلغي التعبئة التي أجريناها: وأنه سيعهد برقبة المناطق الممتدة وراء الألب الى دوميتيوس وبرقبة المناطق الألبية السفلى الى كونسيديوس نونيانوس (وقد نالاها)؛ قم أنه سيطلب القنصلية: لم

يطلب أن نقبل ترشيحه في غيابه، بل إنه سيحضر لأجل المطالب الثلاثة المعروفة.

وقبلنا شروطه على أن يسحب فصائله من الأماكن التي احتلها ليتسنى لمجلس الشيوخ أن يبت بهذه الشروط في روما دون ضغط أو إكراه. فلو تصرف قيصر على هذا الأساس، لانتعش الأمل بالسلام، سلام قلما يشرف دون شك، لكنه وأي شيء منه أفضل من الوضع الذي كنا فيه.

. . . ثم صدمني في المحبة ذاتها، نقص في نقائها وضعف في أناقتها ورقتها حولاني عن محبة بومبي خاصة وأنه أهمل وهرب بطريقة مزرية. لم يبق في سلوكه أي نشاط جدير بأن يدفعني لمرافقته. أما الآن فإن المحبة تعود الى الوقوف؛ وليس بوسعي أن أقاوم رغبتي: فكتبي ورسائلي وعقيدتي تخدمني في شيء، أصبحت كالطير أرنو ليل نهار الى أبعد من البحر وأود لو أطير. إنني أتعرض لقصاص تنزله بي حماقتي.

لكن ما هذه الحماقة؟ ماذا فعلت دون تفكير طويل؟ إذا لم يكن ثمة إلا الهرب، لأهربن مختاراً، لقد تراجعت مذعوراً أمام حرب من أشد الحروب هولاً وفظاعة لم يتوقع الناس حجمها ولم يحسنوا التكهن بضخامتها. (. . .) أما سيلا وماريوس وسينا فقد حملوا السلاح ضد موطنهم وكانت لهم حجتهم وربما كان لهم ملء الحق. إنما هل ثمة أفظع من انتصارهم؟ وهل ثمة أنحس؟

هذا النوع من الهرب هو الذي هربت منه ومن اعتقادي أنه يتطور نحو الأسوأ.

أنا من لقبني بعضهم أبا المدينة وحافظها هل أقود ضدها جيوشاً من

الجيتيين والأرمن والكلوشيديين؟ أأجلب على مواطني المجاعة وعلى ايطاليا الخراب؟

إن الإنسان هنا فإن وطرق ذواته كثر، لكن طالما تعلق الأمر بنا فإن علينا إبقاء شعبنا خالداً، فما زال أمامي قبس من أمل بإيجاد ما هو أفضل من جريمة هنا وخزي هناك.

(بعد المقابلة الحاسمة مع قيصر) قال بأن من شأن قراري أن يقضي عليه لأننا ان لم نأت نحن الى روما. أجبته بأن وضعهم يختلف عن وضعي، فسيكون ذلك مبرراً للآخرين لكي يؤجلوا مجيئهم أكثر. وبعد جدال طويل قال: «تعال إذن وابحث في السلم. ـ بكل حرية؟ـ وهل علي أن ألزمك بقولك؟ ـ سأقترح، قلت، على مجلس الشيوخ أن يرفض حملة أسبانيا ونقل الجيش الى آسيا، وسأتقدم بشكاوى كبيرة ضد بومبي».

ثم قال: «لا أحب سماع هذا الكلام. ـ كنت أرى رأيك، قلت، لذا لن أحضر الجلسة لأن واجبي إما أن أقول ما قلت لك وكثيراً غيره مما لا يمكنني السكوت عنه لو حضرت، وإما أن لا أحضر.». في نهاية المطاف، نصحني بأن أفكر فكأنه يبحث عن مخرج. ولم يكن بوسعي أن أرفض. وها نحن مفترقان. أيقنت أنه لا يحبني. لكني أحببت نفسي حينئذ أكثر من أي وقت مضى.

. . . أتعرف امرءاً أتعس حالاً؟ لا أقول هذا لأضعف من عزيمتك. أما أنا فعلى شفا جرف لأني أكاد أرى حينا من الدهر يقعدني عن أي فعل أو شجاعة أو أناة.

شيشرون يدعو الشعب إلى محاربة أنطوان

أيها المواطنون: ليست حربكم مع واحد من أولئك الأعداء الذين يبقون محلاً لبحث شروط السلام. إنه لا يرمي إلى استعبادكم، كما كان من قبل، بل يريد دمكم كما تدل عليه سورة غضبه.

فما من لعبة تلذ له في لهوه لذة النحر والذبح وقتل المواطنين أمام عينيه. كلا، أيها الرومان، لستم تجاه رجل شرير كافر وإنما أنتم تجاه وحش مفترس رهيب يجب تحطيمه حتى في الفخ الذي يقع فيه. لأنه لو أفلت منه فلن تشفع لكم مع ضرواته شفاعة ولن يحميكم من فظاظته توسل. لكننا سنمسك به الآن ونعصره ونتهمه، الآن بما لنا من فصائل وبما سيجهزه القناصل الجدد في الأيام القليلة القادمة. أيها المواطنون، تعلقوا بقضيتكم هذه كما تفعلون اليوم. فقد أجمعتم أمركم أكثر من أي وقت مضى ومتنتم تحالفكم مع مجلس الشيوخ كما لا عهد لكم به من قبل. وليس ذلك مستهجناً.

ينبغي أن نعرف، لا في أي ظروف سنعيش، بل ما إذا كنا سنحيا أو سنموت ما بين المصائب والمخازي. طبعاً فالموت أمر حتمته الطبيعة على الجميع لكن المناقب التي يتفرد بها عنصر روما وأبناؤها ترفض الفظاظة والخزي في الموت.

إن أنطوان يباهي غالباً بأنه صنو كاتيلينا: بل يتساوى معه بجرائمه ويقصر عنه بصنائعه. كاتيلينا لم يكن له أي جيش فأوجده بنفخة. أما صاحبنا فقد خسر الجيش الذي أمد به. إذن، وكما كسرتم كاتيلينا بفعل نباهتي وسلطة مجلس الشيوخ وإقدامكم ومروءتكم، فاعلموا منذ الآن

انكم بوفاقكم مع مجلس الشيوخ الذي لم يكن أوطد منه اليوم وبفلاح جيوشكم وقادتكم ومناقبهم، تجعلون زمرة أنطوان المرذولة تبدو وكأنها محطمة من زمن بعيد.

حوار النوابغ

كاتون وبومبي وقيصر خاطبوا شيشرون، وأجابهم. لقد أعطى لكل قدره. إنه حوار أحياء، حيث يترددون وحيث يصطدمون. تحدث شيشرون الى كاتون عن الرقة، والى بومبي عن الحرب، والى قيصر عن الموت.

كاتون والرواقيون ودقائق الأمور

اعتنق السيد كاتون الرواقية مقتفياً أثر أساتذة راسخين في المعرفة، وقد كان من أكثر الناس نعمى. ولم يقدم عليها ليتخرج منها واعظاً شأن الكثيرين، بل ليتعلم كيف يحسن نمط حياته.

هل لعشاري الضرائب من مطلب؟ انتباه! قد يلعب النفوذ دوره.

ويأتي المتضرعون، في البؤس والشقاء؟ قديكون فاجراًزندقياً من ينقاد

أحياناً للرحمة والشفقة. بعضهم يعترف بخطيئته ويسأل المغفرة على ما ارتكب:

هنا الغفران زندقة. لكن الجرم خفيف: كل الأخطاء سواء.

لقد قلت كلمة: إنه يجمد فهذا توجيه، ثم إنك لم تتبع الحقيقة، بل الظواهر: والحكيم لا يتبع الظواهر. (. . .) إن أساتذتنا، الذين يستلهمون أفلاطون وأرسطو والذين يصلون الاعتدال بالتوازن، يقولون أن الحكيم يرضى أحياناً بالمعروف؛ وأنه يتعين على رجل الخير أن يكون براً ذا رحمة؛ وأن ثمة أنواعاً محددة من المرتكبات لها عقوبات مختلفة؛ وأن الرصانة تترك للعفو محلاً؛ وأن الحكيم نفسه قد يتمسك بظاهرة ليس على يقين منها، وقد يأتي عليه حين يستسلم فيه للغضب، وقد ينثني أمام التوسلات؛ وقد يعدل ما سبق أن أكده ذات يوم إذا رأى الأمر أكثر عدلاً، وقد يغير من رأيه حينا؛ وكل الفضائل تجد توازنها مضبوطاً في الوسط الصحيح العادل.

الحكيم والعسكري

اثنان من الفنون يبوئاننا أسمى مراتب الكرامة، أحدهما يمت الى اللواء والآخر الى الخطيب المجيد، هذا يحفظ رونق السلم وذا يدفع أخطار الحرب.

ولا شك أن الفضائل الأخرى كالعدالة وحسن النية والتقوى والإعتدال لها قيمة عظيمة في ذواتها (. . .)، لكني أتحدث الآن عن الجهود التي ترمي الى منحنا الشرف العام لا عن الفضيلة الفطرية في كل

إنسان. إن ثمـرة هذه الجهود جميعاً تسقط من الأيدي منذ دقات النفير الأولى إعلاناً لحرب جديدة. كما قال إنيوس Ennius الشاعر والعبقري المطاع؛ منذ إعلان الحرب، ليس تقليدكم للتعقل هو الذي يغيب عن المسرح بل ملكة الكون كذلك أي الحكمة ذاتها؛ فالعنف يفعل ما يريد، يحتقر الخطيب لا لأن كلماته تأخذنا فصاحتها بل حتى عندما يكون واحداً من أهل الخير؟ فالتقدير للجندي الرهيب وكل دراستكم ملقاة أرضاً. لا قتال بالحق وإنما بالحديد تنتصف المظالم. هنا، ينبغي، في اعتقادي، أن يتنازل المنبر للمعسكر، والرخاء للحرب، وقلم الكاتب للسيف، وظلال القيلولة الظليلة للشمس.

لماذا أصبح بومبي رجلاً لا غنى عنه؟

لقد طالبت مدن الساحل ببومبي لا لمجده العسكري وحسب بل ولأريحته كذلك. كانت ترى أن الدائنين، إلا قليلاً منهم، أثروا من المال العام مدى سنين، وما كانت ضالتهم في حديثهم عن الأساطيل إلا مزيداً من الخزي لنا ومن الخسائر. إن جشع هؤلاء الذين يمرحون اليوم في المقاطعات والنفقات والعقود التي ارتضوها لا يجهلها من يدلون بأنه لا ينبغي وضع كل الأمور بين يدي رجل واحد؛ تماماً كما لو لم نر أن عظمة بومبي لم تكن نتيجة صنائعه وحسب بل ونتيجة مساوئنا كذلك.

بومبي على خطى قيصر (٤٩ ق. م).

لست أفكر في الكرامة والشرف والمنزلة التي خسرتها، بل في ما ظفرت وما أنجزته، وفي الثناء الذي حفلت به حياتي. في ضنك حالي

الراهن، أقيس الفرق بيني وبين أولئك الذين تسببوا في خسارتي كل شيء، إنهم حسبوا أنه بدون طردي من المدينة فلن يكون بوسعهم تحقيق رغباتهم بحرية. وها أنت ترى ما آل إليه حلفهم وتوافقهم الفاخر. الأول يستعر شراسة وإجراماً، فلا يحترم شيئاً وهواه يزداد خطورة مع الأيام. (. . .) وبينما هو على هذه الحال، يطلب تعيينه طاغية.

والآخر الذي لم يحاول انتشالنا عندما كنا نتهالك على قدميه، والذي لم يشأ أن يفعل ما يجد من مرامي قيصر، ها هو يفلت من يدي زوج أمه ومن سيفه، ويعد العدة لحرب في البروالبحرطالعهاسيّىء على مواطنيه إن هو انهزم، نتيجتها كارثة حتى لو هو هزم.

وإذا كنت لا أفضل صنائع أولئك الجنرالات الكبار على صنائعي، فإنني لا أحبذ ثرواتهم كذلك التي يخالونها مشرعة ببريق الظفر ونراها نحن أشد فظاظة. فمن ترى يكون سعيداً فعلاً إن هو دمر وطنه أو أفرغه من أهليه؟ وكما تذكرنا به، وكما أحسنا ذكره في كتبنا، إذا لم يكن هنالك أجمل من جمال النفس، ولا أسوأ من الخزي، فإن كلا الرجلين بائس شقي لأنهما سعيا دائماً إلى ربط كرامة وطنهما وسلامه بسيطرتهما ومصالحهما الشخصية.

إنني لأعتمد على نقاء ضميري عندما أرى أن الجمهورية لم تنل مني إلا خدمات عندما كان بوسعي خدمتها، أو، على الأقل، أني كنت عرافها، وأن الجمهورية انقلبت في العاصفة التي توقعتها قبل هبوبها بأربع عشرة سنة.

رحمة قيصر: دعوة الى فضيلة المنتصر

إن لك لحقاً أن تفضل هذا اليوم على كل المعالم الأخرى الكبيرة والعديدة، بأن لك فيه قياماً بأعمال البر والمعروف. هذه الرحمة تنحصر فعلاً في القيصر، بينما الصنائع التي أنجزت تحت لوائك هي عظيمة دون شك، لكنك كنت إبانها في عسكر كبير كثير. (. . .) حينها هزمت كل المنتصرين في الحرب الأهلية بالعدل والتسامح، أما اليوم فإنك تجاهد نفسك وتهزمها كذلك. أخشى أن لا يفهم السامعون قصدي بما قلت وما أفكّر فيه: يبدو لي أنك انتصرت على انتصارك ذاته، أنت الذي أعدت للآخرين ما منحك إياه انتصارك. في شريعة انتصارك كنا جميعاً منهزمين ومكسورين فحافظ علينا حكم رحمتك ورعانا. هكذا أنت الوحيد الذي لم ينكسر، أنت الذي قهرت شريعة انتصارك وعنفوانه. . .

لقد سمعت آسفاً مقولتك الحكيمة الباعثة الإعجاب: «لقد عشت ما فيه الكفاية إن للطبيعة أو للمجد». إذا أردت، فقد يكون كافياً للطبيعة ربما، وأضيف؛ إذا كان ذلك يناسبك للمجد. لكن، وهذا هو الأهم، ليس كافياً عيشك بل قليل هو جداً للوطن. (. . .).

هاك إذن الجزء الباقي عليك إتمامه والعمل الذي عليك أن تقوم به: أرس دعائم الجمهورية على أسس ثابتة صلبة، واستمتع فيها بالطمأنينة والرخاء قبل غيرك، حينئذ تكون قد أوفيت بدينك للوطن، وأتممت للطبيعة حياة إشباع، عندها لك أن تقول: عشت ما فيه الكفاية.

الشك الذي تبلوره التجربة

قد نفكر في أمر باسكال وفي لعبة الطابة. إنها الطابة ذاتها على الدوام.

لكن شيشرون يضعها على طريقته. لذا تغدو بلاغته هنا أكثر دقة وترددا. لقد استغرق فنيـلون في بوسويه. وحاولنا اقتفاء هذه الفكرة في حِيَلِهِ ses méandres. هذا، بدون شك، هو معنى الركود الشيشروني. لم يجد تنظير المبدع مجالا للحياة لديه، بل كان حب الحقيقة يحيا فيه باستمرار ويقترب من الوقائع. إبحث عن العلم في عالم الظواهر وليس في ثبات المسلمات؛ إنه مثال حديث كفاية الحداثة. ربما يبرر بعض تردده (مثلا: حول موضوع الآلهة، أو حول فن العرافين). ليس بوسعنا أن نستنتج دائمًا ونضع خلاصته.

(كما رأى هؤلاء الأساتذة) فالحواس لا تقوى على تقدير الحقيقة، مهما انطلقنا من المحسوس؛ لقد كانوا يبتغون إيجاد مقدر الحقيقة في الذهن؛ واعتبروه أهلاً للإبداع وحده، لأنه وحده الذي يرى البسيط من الأمور، الفرد الذي تتطابق طريقة كينونته مع كيانه القائم. هذا ما أطلقوا عليه اسم الفكرة كما فعل في حينه أفلاطون: يحق لنا ترجمة ذلك بتمويه الحقائق Species.

بالنسبة الى الحواس، فقد اعتبروها سميكة وبطيئة لا طاقة لها، بأي حال، على اكتناه الأشياء التي تصوّروها معلوة خاضعة لغيرها، لأنها صغيرة جداً بحيث لا تقع عليها الحواس، أو لأنها شديدة الحركة بحيث لا وحدة لها ولا استقرار على حال ولا هوية، لأن كل شيء يرسب ويسيل في عباب مد واحد. وقد أطلقوا على هذا الجزء كله من الحقيقة تسمية مادة الرأي. بالنسبة الى العلم، فقد اعتبروا أنه لن يوجد في أي مكان، ما لم يكن في مفاهيم النفس وقوة إدراكها؛ ولهذا فقد اعتمدوا طريقة المنطق في تعريف الأشياء وطبقوا هذه الطريقة على كل نقاشاتهم. كذلك فإنهم اعتمدوا التوضيح المعلل في شرح الكلمات أي البحث عن أسباب كل تسمية وهذا ما دعوه «فقه اللغة».

ثم استعملوا بعض الأدلة محاولين استخراج العلاقة المميزة للحقائق ودأبوا على هذا المنوال في الإثبات والاستنتاج إذا أرادوا إيضاح أية مسألة.

الركود لا يضير بالعمل

إن طريقة التعليل هذه يبررها تعقل أجدادنا الفطن ذاته؛ فقد شاؤ وا أن حلف اليمين ينبغي أن يتم في نفس الحالف وفي ضميره ثم أنشأوا هذا البند القانوني ـ إذا كان هنالك خطأ جرى إدراكه ـ، لأن الجهل يلعب دوراً كبيراً في الحياة؛ ثم أثروا أن من يدلي بشهادة عليه أن يقول: كما شبه لي، حتى ولو كان بصدد ما قد رآه فعلاً؛ وأخيراً فإن على القضاة الذين حلفوا اليمين أن ينطقوا في أحكامهم لا بأن الوقائع قد وقعت وإنما بأن ذلك يبدو لهم.

التحكيم بين الفلاسفة

أتيكوس: . . . كان صديقك جيليوس ذاهباً الى اليونان للقيام ببعض وظائف قنصلية، ولما وصل الى أثينا جمع كل الفلاسفة الذين كانوا هناك في مكان واحد وحثهم على أن يعطوا ذات يوم نظاماً لتناقضاتهم: إذا لم تكن نيتهم قضاء عمرهم في البحث عن القضايا فإن أمرهم لا بد صائر الى اتفاق. وفي الوقت ذاته، فقد عرض لهم خدماته في حال توصلهم الى تفاهم.

ماركوس شيشرون: ـ إنها لمحة طريفة يا بومبونيوس وقد ضحكوا منها كثيرا، أما أنا فكنت راغباً في تعييني حكمًا بين المحفل القديم (L'ANCIENNE ACADMIE) وبين زينون.

الرواقي بالبوس والأكاديمي كوتا يناقشون طبيعة الآلهة أمام أصدقائهم

ثم قال كوتا: (...) قبل دخول الموضوع سأقول شيئاً عني: يابالبوس، لم تجعلني عقيمًا لا سلطتك ولا خطبتك التي لم تحتشي خاتمتها على التذكر بأني كنت كوتا، وكاهنا: إنما عنى لي ذلك، كما أعتقد، واجبي في الدفاع عن الأفكار التي ورثناها عن القدماء حول الآلهة السرمديين وتراثها ومراسمها وفرائضها الدينية.

وإنني لمدافع عنها دائمًا كما كنت وما أزال، وليس هنالك من خطاب ولا جهبذ يمكن أن تغنيني عن اليقين اليه أولا نية أجدادي في موضوع خدمة الآلهة. عندما نكون بصدد الدين فإن الأحبار العظماء تي. كورنكانيوس وب. شيبيون، وب. شبندلا هم أئمتي، لا زينون وكليانت وكريزيب، وإني لأفضل ليليوس العاقل الحكيم على أي أستاذ رواقي وإني لأصغي إليه يتحدث عن الدين في خطاب له شهير.

خلاصة النقاش

(انتقد كوتا العناية الالهية التي دافع عنها بالبوس)

ثم قال كوتا: «بالنسبة إلي، أتمنى يا بالبوس أن تدحض رأيي، وقد فضلت تحليل النقاط التي ناقشتها على الفوز بالحكم. إني أعلم علم اليقين أنك تستطيع الفوز عليّ بيسر. أجل كما قال فيليوس الذي كان يظن بأن الأحلام أرسلها إلينا جوبيتر: لا أحسبها أخف من مقولات

الرواقيين عن طبيعة الآلهة». بهذا القول نفترق: فيليوس ألفى طرح كوتا أصوب؛ أما أنا فأرى في طرح بالبوس أكثر من مسيل نحو مشابهة الحق.

الأخلاق حكم بين الشعائر

إن شريعتي تفرض إعلاء الشعائر التي تتضمن أكبر قيمة خلقية من بين شعائر الآباء. حول هذا الموضوع، راجع الأثينيون أبولون بيثيان ليسألوه بأي الفرائض الدينية يلتزمون من الباب الأولى. وهاك الجواب الحكيم الذي نالوه: **تلك التي دخلت في عرف أجدادنا**. ثم عادوا فقالوا ان عرف الأجداد طالما تبدّل. سألوا عما ينبغي عليهم اتباعه على وجه التفضيل من بين الأعراف المتنوعة. ورد الجواب: **الأفضل**. في الحقيقة هذا صواب: إنه الأفضل الذي يجب أن يكون في نظرنا الأكثر قدماً والأكثر قرباً من الله.

البحث عن الحاكم الصالح

لا عمل بلا مبادىء . وقد استخلص شيشرون مبدأين من خلال الشك والتجربة وأوضحهما في « حلم شيبيون ». لا كينونة لنا إلا بروحنا ، وكل عمل قيم له مصادر روحية . إننا متصلون بالكون ونتحمل مسؤولية هذه الصلة ؛ إننا نولد لوطننا وإن وطننا يولد للعالم ، صحيح أن المبادىء ذات جنوح مؤسف نحو التحول إلى عقائد . « ليس ثمة فاحشة إلا وقالها فيلسوف ما ». لكن التجربة تظهر أن الناس متفقون على حب النوع البشري وعلى احتقار الشهوات . ولا أحد يرفض المعاناة من أجل الروح .

صلاح الروح وصلاح الخارج

في المجال الخلقي الذي نتحدث عنه ، لا شيء أسنى ولا أعم من علاقة الناس بالناس ، هذا النوع من الشراكة وتواصل المصالح ، أوقلة

حب النوع البشري ذاته الذي يتولد من أولى عواطف الحنان التي يبديها الأهل نحو أبنائهم منذ إنجابهم ، والذي يوحد الأسرة برابطتي الزواج ووحدة الأرومة ، والذي يتسلل نحو الخارج بروابط الدم أولاً ، فبالتحالف ، وبالصداقة ، ثم بعلاقات الجوار ، وبالمواطنة أخيراً ، هذه الصداقات ، هذه العهود التي تلهم المصلحة العامة ، وختاماً بتعانق النوع البشري كله :

إن عاطفة الروح التي تعطي كلا ما يعود إليه والتي تحمي بسخاء عدل شراكة الوحدة البشرية التي تحدثت عنها ، تسمى العدالة وتنضم إليها التقوى والطيبة والتحررية والرقة والمجاملة وكل ما هو من هذا القبيل . هذا كله خاص بالعدالة كما لا ضير أن يظل خاصاً بالفضائل الأخر . (. . .) لا يمكن أن يحوز العدالة فعلاً إلا امرؤ شجاع حكيم . هكذا هي عصبة الفضائل وانسجامها ، وهذا هو الجمال الخلقي لأنه يتحد بالفضيلة ذاتها أو بمآثرها : إن حياة تلبي هذه المتطلبات وتستجيب لتلك الفضائل لهي حياة قويمة شريفة ثابتة ومتصلة بالطبيعة .

إلا أن هذا الاتحاد وهذا الخلط بين الفضائل يتعرضان بوجه ما لتحليل الفلاسفة : لا شك أنها منسقة تنسيقاً جيداً ومترابطة جميعاً بحيث تسهم كل منها في الباقيات دون مجال لفصلها ؛ بيد أن لكل منها وظيفة خاصة بها : تتجلى الشجاعة في الشدائد والمخاطر ويتجلى الاعتدال في احتقار الرغبات ، والحكمة في التمييز بين الحسنات والسيئات ، والعدالة في إعطاء كل ذي حق حقه ، وبما أن في كل فضيلة ما يشبه اهتماماً بالنظر إلى الخارج ودعوة الآخرين ومصافحتهم ، فينتج

عن ذلك أن الأصدقاء والأشقاء والأقرباء والأهل والمواطنين وكل الناس بالنهاية ـ لأننا لا نريد أن يكونوا إلا مجتمعاً ـ ينبغي أن يكونوا مقصودين في سبيل أنفسهم . بيد أنه لا يوجد شيء من هذا النوع الذي يمكن أن يشكل جزءاً من أجل الصلاح الأقصى . إذ يمكن التماس نوعين من أنواع الميزات جديرين بالبحث عنها لذاتها : الأول يتضمن المصالح التي تساهم في إتمام ذلك الحيز المطلق وهي تتصل بالروح والجسد . والثاني يتضمن الخيرات الباقية في الخارج التي ليست في الروح ولا في الجسد ، كالأصدقاء والأهل والأقارب والوطن ذاته ، وهي عزيزة علينا بعينها لكنها ليست من نفس مستوى مصالح النوع الأول . . (. . .) إنما ، ترى كيف يصح أن ينتسب كل إلى الحيز المطلق إذا كانت الصداقات والأحلاف وكل المصالح الخارجية ليست جزءاً منه ؟ بالتقدير التالي الواضح تمام الوضوح ، هذه المصالح الخارجية تكفلها واجبات ناشئة عن فضائل ، كل في إطار نوعه ، فتقوى صديق أو قريب متمم لواجباته هي خيّره بما أن القيام بالواجب يشكل جزءاً من الأعمال القويمة الناشئة عن الفضائل . إن الحكماء يتبعون هذه النظم لأن الطبيعة هي التي تزودهم : إلا أن أناساً ناقصين مفتقرين إلى النوعية الرفيعة هم غالباً واقعون تحت مهماز المجد الذي له ظاهر الجمال الخلقي ومحاكاته . فلو رأوا المجد في تمامه وإطلاقه ، في بريقه الذي يجعل فوق كل شيء ، هذا المجال الجدير بالمدح أكثر من كل ما عداه ، لو أنهم رأوه في عمقه ، فأية سعادة لن تغمرهم ، طالما أن ظاهره جعلهم يتطيرون ! .

الأهواء وأسبابها

علينا أن نشرح مصدر ذلك الألم أي السبب الذي يحدث مرض

الروح كما مرض الجسد. فالأطباء يجزمون بأنه متى عرفنا سبب الألم توصلنا إلى طريقة لعلاجه . ونحن كذلك ، عندما نجد سبب مرض الكآبة فسنمتلك وسيلة مداواته . إذن ، فهذا السبب ما زال كامناً في الظن كما هو حال سائر اضطرابات الروح التي تتضمن أربعة أنواع وكثيراً من الأجناس . كل شهوة هي بالفعل حركة من حركات الروح التي لا عقل لها أو هي تحتقر العقل أو أنها تعصيه ، هذه الحركة يثيرها الظن باتجاهين سواء بالخير أو بالشر . (. . .) وهكذا ثمة نوعان من الشهوات : اللذة المستعرة والرغبة ، وهما ناشئان عن ظن بالخير كما هنالك نوعان آخران هما الخوف والكآبة ناشئان عن ظن بالشر (. . .). أمام هذه الإضطرابات جحيم رهيب يرسيه انعدام الحكمة في حياتنا فيثيرها ضدنا فارضاً علينا المقاومة بكل قوانا وكل مواردنا إذا كنا نريد أن نقضي ما قدر لنا من حياة في طمأنينة وهدوء .

الألم والحنان

أولئك الذين يبعدون الصداقة عن الحياة كأنما أراهم يبعدون الشمس عن العالم . في حين أن الآلهة السرمديين ما وهبونا أفضل منها ولا أعذب . ماهو الأمان الذي يمتدحون ؟ إنه مغرٍ في ظاهره ومحكوم عليه في حقيقته من عدة نقاط . فليس بالمنطقي فعلاً أن نتقي الهم برفض إنجاز صنيعة جميلة أوعمل نبيل أو أن ندع ما بدأناه قبل إتمامه . فإذا أردنا الهروب من القلق فإنما نهرب من الفضيلة التي لا بد أن يساورها القلق عندما تحتقر أو تمقت ما يعارضها : وهكذا فالطيبة تجاه الخبث والاعتدال تجاه الهوى ، وتجاه الجبن الشجاعة . ولذلك يمكنك التثبت من أن السوي يسوؤه أكثر من غيره أن يرى الإجحاف ،

والباسل أن يرى النذل ، والورع أن يرى سلسلة الإجرام . إنه إذن لذي النفس المفطورة على الخير أن يرى اللذة في الخير ، والألم في نقيضه . وإذا كان للألم محله في نفس الحكيم فبأي مشيئة نخلع الصداقة من الحياة مشفقين من أن تنالنا معها أية مشقة ؟ وإذا انتزعنا من النفس توثبها فهل يبقى من فرق بين الإنسان والحيوان بل بين الإنسان وجذع شجرة ، أو صخرة ، أو أي شيء مماثل ؟ ولا ينبغي أن نصغي إلى أولئك الذين يريدون أن تكون الفضيلة شديدة البأس كالحديد : إنها ، في الصداقة وفي كثير من الأحوال ، لطيفة وحنون . . .

واجبات مروءة

رسالة الواجبات هي وصية شيشرون . إنه يحدد فيها قواعد العمل التي يمكن سلوكها : التصرف دائماً بطريقة مؤدبة أي خالصة لوجه الإنسانية . وهاهي قواعد النزعة الإنسانية قد أرسيت . وهي تجد تطبيقها في التأمل حول القانون وحول الحرب . لكن علينا أن نتنبه إلى هذه النزعة الإنسانية ، لا تقيد الإنسان بحدوده الخاصة . إنني أسكن المدينة المشتركة ، مدينة الناس والآلهة . . .

ـ مظهر الرومان الهرمين : أبيوس كلوديوس

أربعةأبناء في عنفوان شبابهم وخمس بنات ، وبيت كبير ، وحاشية كثيرة ، جميعهم خاضعون لأبيوس ، وكان أبيوس عجوزاً ضريراً . (. . .) لقد احتفظ لنفسه بالسلطة ، بل بسلطة مطلقة على العرف ما ملكت يمينه : فالعبيد يخشونه والأولاد يحترمونه ، كان عزيزاً على

الجميع؛ إذ العرف وسلطة الأب في هذا البيت هما في أوجهما. هكذا الشيخوخة غالية عندما تحتمي بنفسها وتحرس حقوقها ولا تبيع نفسها لأحد، وتسيطر على ما تملك حتى النفس الأخير. حبذا رجل شاب فيه بعض ما في الهرم، وحبذا هرم فيه بعض ما في الشباب.

ـ كاتون القديم : (شيشرون يجعل شخصية كاتون تنطق)

بين يدي الكتاب السابع من « أصولي » ؛ أجمع كل ذكريات القدم ؛ أكتب الآن المرافعات في القضايا الباهرة التي دافعت عنها ؛ أبحث في القانون التنبؤي والقدسي ، والمدني ؛ أطالع الآداب اليونانية ، وأسترجع في المساء ، على طريقة البيتاغوريين، ما قلته وما سمعته وما أنجزته كل يوم ، من أجل تدريب ذاكرتي . تلك هي تمارين ذهني وأشواط ذكائي ، ينالني فيها العرق والتعب ولا تمسني حاجة لإعمال قوى جسدي . إنني أستقبل أصدقائي وأثابر على الحضور في مجلس الشيوخ ، أتقن أعمالاً قبل أوانها لأني أكون قد فكرت فيها ، كثيراً وطويلاً ، وللسهر عليها ألجأ إلى الروح لا إلى الجسد . وإذا عزت علي المهمة تلقاني سريري وأنا منشغل بالتأمل فيما لم يسعني إنجازه ، بينما حياتي الماضية تدل على أني كنت مقتدراً على إنجازه . فالذي ما زال يحيا بين هذه الدراسات وهذه الأعمال لا يستشعر أن حينا من الدهر سيأتي عليه تزحف الشيخوخة فيه إليه . هكذا يثقل العمر دون إحساس به ، وهكذا تخبو الحياة وتنطفىء بدلاً من انحطامها فجأة .

ـ خداع ومداهنة

إذا صح التعريف الشهير الذي وضعه أكويليوس ، وجب نفي أي

تصنع أو مداهنة من الحياة . حتى لو كنا من أهلَ المعروف ، فليس هنالك بيع أو شراء بثمن جيد إلا وداخله التصنع والمداهنة . (. . .) يرى أكويليوس أن الخداع يكمن في التصنع . ينبغي إذن إبعاد الكذب عن الأعمال المتبادلة (. . .) . لقد طلب كونيتوس شيفولا بن بوبليوس أن يقدم له عرض سعر لأرض كان قد اشتراها ، وقد قضى بائعها ، فاعتبر كونيتوس أن تقديره هو الأقوى وزاد الرقم مئة ألف . ليس بوسع أحد أن يسفه تصرفه كرجل خير ؛ إلا أننا ندحض صدور هذا التصرف عن رجل حكيم ؛ فكأنه باع بسعر أقل غلاء بنسبة قلة قدرته على رفعه أكثر . فانظر أي تعاسة هي في أن لا نجد أن أهل الخير هم نفسهم أهل الحكمة . من هنا كانت كلمة إنيوس : عبثا يكون الحكيم حكيماً إذا لم يستطع أن يعطي الكسب لنفسه . إن هذا ليصح لو كنت موافقاً إنيوس على طبيعة الكسب . إني أرى ما كتبه هيكاتون الرودسي تلميذ بانيتيوس في كتبه عن الواجبات :

« بوسع الحكيم أن يأخذ في الحسبان فوائد أمواله على أن لا يخالف في حسبانه الآدابَ والقوانين والمؤسسات . وفي الواقع فإن كوننا مستقيمين لا يعود نفعه علينا وحسب بل على أولادنا وأقربائنا وأصدقائنا وخاصة على الجمهورية » . بالنسبة لهذا الفيلسوف فإن فعلة شيفولا التي ذكرتها ليست مرضية بأي وجه . فهو يعلن أنه لا يمتنع عن نشدان ربحه إلا إذا كان ذلك ممنوعا . إنه لا يستحق ثناء ولا عرفانا . لكن على العكس ، إذا كان التصنع والمداهنة يؤلفان خداعاً فقد لا نجد حالة ليس فيها خداع ، وإذا رجل الخير هو من يساعد كل الذين بوسعه مساعدتهم ومن لا يلحق أي ضرر بأحد ، فليس من اليسير أن نجد رجلاً كهذا .

إذن ، فليس من المفيد ارتكاب الخطيئة لأن هذا دائماً مخز ، وكما أنه من المشرف دائماً أن يكون المرء رجل خير ، فإن ذلك دائماً مفيد .

ـ ضد العنف

من بين كل شيء ، لا شيء أكثر عونا لنا على الاحتفاظ بقوتنا وصيانتها من أن نكون محبوبين ، ولا شيء أكثر مناهضة لنا من أن نكون مرهوبين .

إنه لشهير بيت إنيوس : « إنما نكره من نخشى ونريد الموت لمن نكره ». لا قوة تقاوم البغضاء ، هذا ما كنا نجهله وعدنا فتعلمناه . ولسنا بصدد ذاك الطاغية الذي ناءت تحته المدينة التي عصف بها السلاح (وقد أحست به بعد موته بشكل خاص) والذي أبدى حتفه وزن الكره الشامل بالنسبة إلى بؤسنا ، لسنا بصدده وحسب بل بصدد النهاية المماثلة التي سينتهي إليها كل أقرانه والتي ليس بوسعهم أن يفروا منها . إن الخشية هي حارسة سيئة لأيامنا ؛ وبالعكس فإن اللطف أخلص لصاحبه وذو مدى إلى الأبد . ربما استعمل الشدة من يرهبون بالقدرة المطلقة الناس الذين قد أخضعوهم بالعنف : هنا تتعاملون مع خدمكم إذا لم يتح لكم ضبطهم بطريقة أخرى لكن أولئك الذين يحاولون أن يبنوا على البغضاء في مدينة حرة إنما تجاوزوا كل جنون .

(. . .) أفضل أن أتحدث عن البلدان الأجنبية في موضوع كهذا ، لا أن أتكلم عما يجري عندنا . خلال وقت طويل ارتكزت قدرة الشعب الروماني على مكارمه لا على مظالمه ، حتى أن الحروب كانت تجري إما

لنصرة الحلفاء وإما لسلطتنا ، وكانت مجاريها رفيعة أو مما لا يمكن تجنبه ؛ وكان مجلس الشيوخ مرسى وملجأ للملوك وللشعوب وللأمم ؛ ولم يكن ولاتنا وقادتنا يريدون أن يأخذوا المجد إلا بما يستحق الدفاع عن المقاطعات والحلفاء ضمن ولاء للشرعية والإنصاف . هذا ما يمكن أن ندعوه إشرافاً على العالم أجمع أكثر مما يمكننا أن ندعوه سلطة مطلقة ، ثم تملصنا من هذا العرف شيئاً فشيئاً وتخلصنا من هذا الانضباط ، وبعد انتصار سيلاّ افتقدناهما تماماً ، فلم نعد نلاحظ المظالم بحق الحلفاء بعد كثير من العنف بحق المواطنين. وهكذا ألفى هذا الرجل قضيته الشريفة يتلوها انتصار بغير شرف .

ـ ريغولوس يموت سراً بقسمه وبقانون الحرب

« لم تكن الخشية من جوبتير واجبة ؛ فما كان غضبه ينذر بالأذى إذ لا عهد له بالحنق ولا بالإيذاء ». هذه الحجة قوية ضد قسم ريغولوس وقوية أكثر ضد أي شيء آخر . لكنها ، في القسم ، ينبغي تفهم قوة القسم ، لا الخوف الذي أنشأه . فما القسم ، فعلاً ، إلا توكيد ديني : إنه ما تعهدنا به وأكدناه مشهدين إلهاً عليه ، وهذا ما يجب الوفاء به فليست المسألة مسألة غضب الآلهة (وهو غير موجود) بل إن العدالة والنية الحسنة هما في الميزان . (. . .) « بالتالي فإن جوبتير لم يلحق أي سوء بريغولوس إلا ما ألحقه ريغولوس بنفسه ، مع أنه كان ساخطاً ». يصح ذلك دون ريب، إذا لم يكن قد عرف من ضروب السوء غير الألم (. . .). ومن جهة أخرى، ثمة قانون للحرب أيضاً، ويجب احترام الوفاء بالعهد الجاري عليه القسم حتى مع العدو.

الكياسة واللياقة والحلم

مهما تكن اللياقة، فإنها تتراءى على خطى حسن الخلق (. . .). كذلك الكياسة وجمال الجسم، فهما لا ينفصلان عن الصحة، وكذلك اللياقة التي نتحدث عنها فهي متحدة كلياً مع الفضيلة، لكن الذهن والتفكير يميزانها (. . .). لقد جَرى تعريف اللياقة تعريفاً واسعاً على أنها ما يتصل بسمو المرء حيث هو ممتاز بطبيعته عن سائر الحيوان.

شيشرون كما هو

هذه الصورة لن تكتمل. ولن نعطي إلا بعض مظاهر هذا الطابع الغامض غموضاً مقترناً بدقة شديدة. نراه يداول بين الفرح والغطرسة والطلاقة والكياسة والقسوة واليأس والمرارة. وتروق لنا انعكاسات متنوعة لعنجهية مطلقة حيث الزهو والطموح يتحولان فجأة إلى ذهنية من التراجع ونكران الذات.

نصائح إلى شاب من أهل المستقبل

هناك نوعان من الرسائل يعجباني كثيراً: الأول مؤنس ومسل والثاني حاد وصارم. ولست أرى أيهما أقل صلاحاً. أو أمازحك في رسالة؟ فالحق أقول، إن من يستطيع أن يضحك في مثل ظروفنا هذه، لا أسميه مواطناً. أو أكتب إليك بحدة أكبر؟ وعَمَّ عسى أن يكتب شيشرون بحدة إلى كوريون، إن لم يكن عن الجمهورية؟ لأنني في هذه المادة،

أمام مسألة هي أني لا أجرؤ على كتابة ما أعتقده، رافضاً، في الوقت ذاته، أن أكتب ما لا أعتقده. لذلك، وبما أنه لم يبق لي أي موضوع رسالة، فسأختم كالمعتاد، وسأحثك إلى أن تحب المجد الأعظم.

توصية يسيرة

أوصيك بالحاح بشأن الفقية المفتي فاليرتوس، حتى لو لم يعرف عن القانون شيئاً: فإنني أرغب أن تزيد في رعايتك له بحيث لا يقوم على رعاية الآخرين.

التسليم بمشيئة الله، والهزل في الحروب الأهلية

إذا أردنا أن نتحمل سيطرة قيصر تلزمنا روح كاتون ومعدة شيشرون.

أعلم أن لي الآن من الالتزامات ما وددت التعصب له لو أنني كنت مقبولاً.

(إلى أحد الأبيقوريين)· إن عليك، بمقتضى الحكمة التي تختص بها، أن تتمنى تحقق المثال وأن تتوقع المصاعب المهلكة وأن تتحمل ما هو آت.

إذن، فمنذ أن كنت أعمل على اضمحلال أطراف تلك القطعة التي ينبغي إتلافها، يخيل إلي أنني كنت أبدي خجلاً قليلاً طيباً من رجوعي عن أقوالي. لكن، وداعاً أيتها الاستقامة والحقيقة والشرف...

الذئب أروع راع.

عنجهيّه أم عظمة ؟

أيها القضاة . يا من تذكرون في الحكم أسماء الآخرين ، بغير دافع من علاقة شخصية حميمة ولا مضرة خاصة ، ولا أي مصلحة . بل باسم الجمهورية ، عليكم ان تحسبوا الحساب ليس للعبء الذي تتنكبونه في الحاضر وحسب ، إنما للتجربة التي ارتضيتم خوضها ما حييتم .

إنما يفرض على نفسه قانون البراءة والعفاف وكل الفضائل ، أولئك الذين ينزلون حياة الآخرين منزلة حياتهم ، خاصة كما قلت ، إذا لم يكن من دافع يدفعهم إلا الصالح العام . فمن أخذ على عاتقه إصلاح طباع الآخرين وردع أخطائهم . لا يستحق أي عفو عنه إذا ابتعد مثقال ذرة عن التدين بدين الواجب . . .

إني أتنكب عبئاً أثقل من أعباء الآخرين الذين يلقون التهم (هذا إذا جاز لنا إطلاق تسمية العبء على ما نحمله بسرور ولذة) إلا أنني جعلت لنفسي المهمة الأوسع ، الطلب من الناس أن يجتنبوا المساوىء التي يرمون بها أقاربهم .

فإذا اتهمتم أحداً باللصوصية والنهب ، تعين عليكم ان تجتنبوا كل هم من هموم الطمع .

وإذا كان هنالك شرير شقي ، فان عليكم أن تتحصنوا دائمًا ضد أي مظهر من مظاهر القسوة وقلة المروءة (. . .) .

أما أنا فأهاجم في شخص واحد ، كل الرذائل التي يمكن أن توجد في

أي منتهك للحرمات ، تعيس ، وأؤكد أن ليس هنالك أية إمارة للفسق والجرم والقحة، إلا وتستطيعون رؤيتها في حياة تلك الشخصية الواحدة . وبصدد هذا المتهم ، فإني أفرض على نفسي هذا القانون ، أيها القضاة : علي أن أحيا بطريقة أبدو معها ، بكل أقوالي وأفعالي بل وبكل امارات التكبر والعتو تلك التي تشاهدونها على وجهه وفي عينيه ، مختلفاً عنه تماماً أبداً ودائماً .

الضعف : في المنفى

إنك تشدد في اتهامي وتردد قولك بأن نفسي تنقصها الصلابة ، وإني. لأسألك، هل من ألم عظيم عظيم إلا وهو داخل في نكستي؟ ومن مثلي في هزيمتي، بعد المنزلة العالية والمصلحة السامية والموارد الوفيرة والسمعة الشهيرة والصيت في وفاء الحقوق وكثرة المناصرين لدى أهل المعروف ؟ أو أنسى من كنت ، ولا أحس من أكون ، ومن أي سعادة حرمت ، ومن أي مجد ، وأي أنباء وأي أملاك وأي أخ ؟

(. . .) وأمضي لتعداد آلامي التي لا تطاق لكن الدموع تحبسها. وبم يمكن اتهامي الآن ؟ هل بالمعاناة ، أم بهذه التهلكة التي ألقيت فيها ، أم أنني لم استطع أن أحفظ كل تلك النعم ، ولعل ذلك كان سهلاً لولا نصائح مقصود بها إهلاكي دخلت الى داري ، أم أنني لم أرض بالعيش من دونها ؟

أم هو الحنان : الحداد على توليا :

في وحدتي هذه ، حرمت من كل حديث . في الصباح أتوارى في

غابة كثيفة مدغلة ولا أبارحها إلا في المساء . فبعدك لا شيء أحب إلي من الوحدة. لا أحاور فيها سوى الأدب. لكن الدموع تقاطعني فأصمد ما استطعت . . . إلا أن القوتين غير متكافئتين.

إن ما يعزيني يا سرفيوس ، ليس كلماتك وحدها ولا ما تقاسمنيه من المي وحسب بل سلطتك تعزيني كذلك . فإنه لمن المخجل في نظري ألا أحتمل بؤسي كما انفرض علي كما ترى وأنت على شيء من الحكمة ، إلا أني مكبل أحيانا وأكافح الألم بجهد جهيد (. . .) . فبعد أن خسرت مفاخري التي تنوه بها أنت نفسك والتي كنت قد استقيتها على إنجازات كبيرة ، لم يبق لي إلا تلك التعزية التي يجري انتزاعها مني (. . .) . في ما مضى كنت أتألم لبؤس الدولة ، فكان يستقبلني بيتي حيث أجد سلواي فيه . أما الآن فالألم مقيم عندي ، وليس لي إلا الهروب نحو شؤون الدولة لألتمس راحتي في نعمائها . بينما أجدني غائباً عن بيتي وعن الساحة العامة ، لأن بيتي لا يستطيع تعزيتي بما الاقي من ألم تبعثه فيّ الجمهورية ، ولا الجمهورية تستطيع تعزيتي بما الاقي من تعاسة أحوالي المعيشية .

بطولة أم تبطل : الرد على انطوان

مَحّص ما يعنيك ، أما أنا فهاك مهنتي مهنة الوفاء . إني حميت الجمهورية في صباي ، وفي هرمي لن أتركها أبدا . لقد احتقرت سيوف كاتيلينا ولن أخاف من سيوفك . وأكثر من ذلك ، سأضحي بجسدي طائعاً مختاراً إذا كان من شأن موتي أن تستقر الحرية في المدينة لكي يولد يوم من خلال ألم الشعب الروماني الذي تحمله طويلا .

ففي الواقع ، منذ أكثر من عشرين سنة وفي هذا المعبد ذاته ، كنت أنفي أن يأتي الموت على قنصل سابق قبل أوانه ، أما الآن فان ذلك يبدو صحيحا بدرجة أكبر بالنسبة الى رجل عجوز . إنني ، أيها الآباء المطلوبون للجندية، أرى لزاماً علي أن أتمنى الموت بعد إذ أتممت انجاز فرائضي وصنائعي. لست أتمنى إلا شيئين اثنين: أولاً، أن أموت والشعب الروماني حر، إذ لن ينعم علي الآلهة السرمديون بأعظم من ذلك، وثانياً، أن تقاس سعادة كل فرد بما يقدمه للجمهورية.

شيشرون وسالّوست :

ينبغي أن نكون منصفين فنعطي الكلمة إلى اخصام شيشرون. هل سيكون أحد أقطع حجة من أولئك الذين قارعوه، فيحكم عليه معاصروه ؟ سالوست كان أحدهم ، دون شك ، إذا ارتضينا أن ننسب إليه ما وردنا باسمه من رسائل هجائية تبدو ، على أي حال ، عائدة الى عصر الخطيب والمؤرخ كليهما .

إن كاتب « الطعن في شيشرون » يقدم لنا ، حوالى سنة ٤٥ ، المجموعة الكاملة للتحيات التي يجب ان نوجهها في ما بعد الى سجايا الأربينات l'Arpinate : « . . . أكثر الرجال خفة ، متوسل لأعدائه ، مهين لأصدقائه ، تارة في حزب ، وطوراً في آخر ، دون إخلاص لأحد ، شيخ تافه ، محام مرتش ، لا يسلم جزء في جسمه من الخزي ، لسان لاغٍ ، يدان خطافتان ، شدق لامتناهٍ ، قدمان مدبرتان . . . » .

أما « الرسالتان الى قيصر » اللتان وردتا في ما بعد فتبدوان مما يمكن

نسبة الى سالّوست . وهما ذواتا وقع متميز ، يستبدل الهجمات الشخصية الموجهة الى قنصل الكاتلينيين بأفكار سياسية تبدو وكأنها معدة بأجوبة شعبية على أبحاث شيشرون السياسية . وهكذا تنشأ مناظرة فكرية ذات أهمية عظمى .

لقد أتينا في مطلع هذا الكتاب على ذكر برنامج الحزب الشعبي الذي كان يحاول ، منذ الغراكيين، أن يأتي ببعض القوانين الزراعية والانتخابية والقضائية سعياً الى تحديث المدينة والحد من امتيازات الأرستقراطية . وحين ترسخت سلطة قيصر الذي كان رئيساً للحزب الشعبي ، أخذ سالّوست على عاتقه محاولة التعريف بفكر الحزب وتحديده . فاستعان بالمصادر اليونانية التي كان شيشرون في كتابه « الجمهورية » قد وضعها في حلة عصرية ، لكنه استعان بصورة مغايرة .

ذلك أن سالّوست يرى غاية السياسة في أكثر من تأسيس جمهورية مثالية ، فهو يرى غايتها في إنشاء علاقات القوة بحيث أن المساواة والحرية والعدالة تنشأ من الواقع .

هذا البرنامج ، بخلاف برنامج شيشرون ، يعتمد المجرد معياراً وحيداً ، ويبحث عن الضمانات القانونية أو التدابير السياسية التي يمكن أن يرضي بها الضعفاء (النضال ضد الربى ، تطوير طرق توظيف القضاة ، انتخاب أعضاءمجلس الشيوخ بالاقتراع السري وزيادة عددهم) .

إن ثمة إيديولوجية تقوم على هذا الاختلاف الفكري . فقد ركز

شيشرون على العدالة والكرامة والسلطة الخلقية ، فيما أسس سالّوست سياسته ، بخلاف شيشرون ، على فضيلتين قديمتين من فضائل تميزت بها روما هما La virtus الطاقة الدفاقة التي عرف بها قدماء الرومان ، و La libertas الحرية ، خلاصة المطلب الشعبي الموجه ضد تجاوزات مجلس الشيوخ والقضاة الحكام.

إن احترام طاقة - Virtus - الرجولة الدفاقة او اعتناق الناس لها واعتبارها مبدأ ، يؤدي الى تقديس البطل لأنه يتحلى بها . على هذا الأساس خاطب سالّوست قيصر قبل أن يخاطبه أحد ، متوجها إليه بقوله :

« إي قيصر ، إنا أنجبناك ، نحن أشجع الورى ، في أرفع المدن ، لتكون لنا فخراً وحصناً ، ولأعدائنا رهبة » .

وإن خشونة مطلب التحرر Libertas لم تكن لتمر بدون أن تشيع الأخلاق الزهدية الصارمة . ولطالما كرر سالّوست قوله : إن الخطر الأكبر على الدولة ليكمن في حب المال . لقد بدأت آلام الرومان مع بداية نعماهم . من خلال هذه العبارات نلمس فهماً للأسباب الاقتصادية ودورها في التاريخ . ومن خلالها نرى مآخذ ضمنية على لون من ألوان التفكير والعمل الشيشرونيين . لأن مالك الفيلات التوسكولانية والكامبانيانية لا يمكن أن يقدم طائعاً على إدانة النعمى . هذه الصرامة الرواقية نادى بها كاتون ، ثم جاء سالّوست ليقلبها ضده .

على أن شيشرون لم يذكر بالاسم في « الرسائل الى قيصر » . ربما

كان السبب في أن شيشرون لم ينفك حينئذ مقرباً من الشعبيين، وعلى الأخص ، في أنه لم يتوقف عن المطالبة بإصلاح الآداب والأعراف المشيخية . وقد شهد الحوار الذي قام بينه وبين سالّوست عل ائتلاف في المثالية كان من شأنه ان يصحح أو يوضح الاختلاف في الممارسة . فقد كانت لشيشرون أمارات المصلح الوسيط سواء بالنسبة الى سالّوست أم الى قيصر .

وربما ساعد ذلك على شرح الأحكام التي أطلقت عليه في عصر الامبراطورية ، هذا النظام الذي قاومه مؤسسوه التزم الصمت تجاهه بادىء الأمر . لكن إصلاحات أوكتاف أوغست تشكل ما يشبه خلاصة للخلقية الشيشرونية وللذهنية القيصرية الدكتاتورية .

خلاصة عجيبة. لقد جرى التنبه لها والحذر منها غداة المعارضة واستيقاظها . فمطلب التحرر لم يكن عند شيشرون كما كان عند الشعب . لكنه وضعه في ذهنه شيخاً ووالياً . وفي أثناء قرنين ، كلما كان نبلاء روما يتفكرون في حريتهم ، كان شيشرون واحداً من نماذجهم .

شيشرون وسان أوغستين :

رأى سان جيروم في الحلم أنه ذهب الى الجنة ، ولم تحسن وفادته هناك. فقد اتهم في عليّين بأنه « شيشروني وليس مسيحيّاً » ودافع عن نفسه ، ولكنه وعلى أمل أن يخدع احتراز الملائكة ، استمر في تقليد أسلوب شيشرون .

ولم يكن الكاتب المسيحي الوحيد الذي أظهر سجية المرطقة ،

فتأثير شيشرون على الآباء اللاتين كان كبيراً . سان أمبرواز الذي قلد رسالة « في الواجبات » يشهد على ذلك . ولعل مثل سان أوغستين هو الأكثر دلالة .

إنه مدين أولاً لمؤلف شيشرون l'Hortensius بأول توجهاته الفلسفية . وقد تظاهر بالتحدث عنه بازدراء . لكن بلاغة الأربينات l'Arpinate تغلغلت في داخله حينما طارحته باستقلال القيم الروحية وأولويتها. في هذه النصيحة الموجهة الى الفلسفة ، بَيَّنَ الخطيب استقلال الحكمة تجاه العالم . وأشار الى أن التجربة حتى في ميدان الجمال توحي بشيء من تجرد القلب إذا ما أبعدنا النفس عن الأرض وعن هذه الدنيا . هكذا كان التحول حينذاك نحو الخالق ، وكانت حينذاك الصلاة . وأولى صلوات سان أوغستين كانت ماورائية وثنية : «هذه القراءة حولت إحساسي ووجهت نحوك صلواتي ، أيها السيد ؛ وجعلت أماني ورغباتي أماني ورغبات أخرى . إنني لم أر إلا الضعة في آمالي التي لا طائل لها ولا جدوى ، ولقد مال بي توق الى الحكمة الأزلية رافقه توثب من القلب . عندئذ كنت أتلمس النهوض للعودة إليك . . . آه ! كم تحرقت، يا إلهي ، كم تحرقت لأعيد طيران أشياء أرضية حتى تصل إليك ! ولم أكن أعلم ما الذي كنت تريده مني . إن الحكمة فيك . لكن حب الحكمة يسمى ، في اليونان ، الفلسفة ، فمن ذلك الحب المبني هذا الكتاب . . . في الوقت ذاته ، أنت تعلم ، يا نور قلبي ، بقدر ما أجهل كلمات الرسول ، ولكن ما سرني في هذه الموعظة هو أنها حثتني وأضرمت فيَّ نار الحب والبحث والفتح وامتلاك ومعانقة الحكمة ذاتها كيفما كانت ، لا هذا المذهب أو ذاك . »

وهكذا فإن نتاج شيشرون الوثني والشكي كان له أثر بالغ في الفكر المسيحي ، وذلك بوجهين ، أولهما أن الخطيب قدم نمطاً للحياة يمكن أن يتبناه المثقفون المسيحيون ، إذا لم يكونوا كهنة . وكما أظهرت أعمال الأب تستار الجديدة ، فإن سان أوغستين بعد اهتدائه الصحيح الى المسيحية اتخذ لنفسه حيناً من الدهر ، قرب ميلانو ، حياة كانت تحاكي المثال الشيشروني . وكانت الفصاحة فيه بخدمة التعليم . إنه التمجيد الديني للطريقة التوسكولانية ، والحوار الفلسفي المصبوب في قاعدة للمعيشة . وكان هنالك جهد ثابت قد بذل ليجعل من الكلمة عطاء كلياً وتجربة شهامة . وكما أن الفعل والفكر توحدا ، كذلك حل التأمل في المعنى العميق لكل تربية ، وفي ذلك النظام الذي يوحد العلوم المختلفة في ما بينها والذي يسمح بالكشف عن مشيئة الله في الثقافة البشرية .

إن تشكك شيشرون ذاته كان أمثولة . لأنه بانتقاد اليقين الخطأ قد أكد أن الإيمان يظل ممكناً . وقد جعل محل المعتقدات الخطأ في السلطة وفي الانطباع .

أولا يندهش الخطيب لممارسته هذا التأثير ؟ ليس بالتأكيد . لقد نشد التأثير على صعيد الدين في عصره . فإذا حكمنا عليه بذلك من خلال مظاهر هرمه لكان مؤهلاً ليتبوأ إمارة الكنيسة . أوما كان يجب ، في كل حال ، إلهام سان أوغستين والإيحاء إليه ، بعيداً عن الصيغ ، بتلك الفكرة التي مؤداها أن الحكمة هي واحدة بالنسبة لكل الناس ؟

شيشرون وتراث المروءة :

في نظرته الى الثقافة ، وفي جهده لتحديد معالم اللغة ، في فكرته وفي أسلوبه، كان شيشرون رائد التراث الإنساني النزعة . وبما أن هذا التراث هو اليوم موضع تشكيك يمكننا محاولة تعريف مواقف المفكرين الإنسانيين المختلفة تعريفاً أدق لنتبين تأثير كاتبنا من خلال تلك المواقف منه .

ذلك أن شيشرون يمثل النزعة الإنسانية قبل أن تبرز . نعني أنه حاضر في العصر الوسيط . وأن له محلاً على مداخل الكاتدرائيات وفي فرزات الفنون الليبرالية . يصاحب فيها السيدة فصاحة الى جانب أرسطو والسيدة فلسفة . وما ذلك إلا عدل .

إذا كانت الأوغستينية قد حافظت على روح مذهبه ، فإن أساتذة آخرين قد حافظوا على حرفه وآدبه ، إذ ان بويس Boèce محلل أرسطو وصاحب النفوذ الواسع في الفكر الوسيط ، قد ترك تحليلات عظيمة لأبحاث شيشرون الخطابية . هذا وإن عمل الخطيب اللاتيني قدم الى علم الكلام طرقاً للإثبات ومبادىء لمطابقة منهج أرسطو على لغة أهل الكنيسة . ولطالما استعان سان توماس بالتراث الشيشروني من أجل مخالفة أفرويس Averroès .

ومع الكاتروسانتو Quattrocento بدا أن شيشرون قد امحى . فلم يظهر له محل في مدرسة أثينا لرافايل حيث سلم أهل الخطابة والبلاغة أماكنهم لأهل العلم والفلسفة ، حيث صاحب أرسطو أستاذ آخر هو أفلاطون ، الذي ، رغم ذلك ، بقي شيشرون حاضراً معه . وهذا ما

لم ينطل على الأفلاطوني بترارك : أجل ، كان شيشرون الأول الذي تمكن من جعل كل الفنون تتجه الى البحث عن المثال .

هذا هو غموض الأمثولة الشيشرونية . إنها تمجد أفلاطون وأرسطو في آن معا . إنهاتتوافق من بعض الجوانب مع الأوغستينية ومن بعضها الآخر مع التوماسية . إنها تحتفل في الوقت ذاته بسلطان الطبيعة وبسمو الأفكار . ولا ترتاح لأي من الوجهين بمفرده . وربما كانت هذه هي علة خصوبتها .

بانتاغرويل Pantagruel يود الإحاطة بمعرفة كل شيء . إنه يثقف نفسه وجسده . ويمارس الموسيقى والأدب والهندسة . ويبحث عن الرفاه الأكثر انسجاماً مع كيانه ، وتتحرك حياة روحه في العلم « كما النار بين ألسنة النار » . بهذا فإنه يطبق مثال الثقافة الموسوعية التي شرحها مؤلف الخطيب De oratore .

مونتاني Montaigne يريد « تجويد الإنسان » ، فيرفض أي غوغائية ولا يتصور التربية خارج إطار الصداقة ، ويؤكد على متطلبات « الضمير » . هنا أيضا نراه يقتفي أثر فكرة شيشرون . لأنه ليس من الصدفة أن يقوم بالبحث عن الفلسفة من خلال ثقافته الخاصة .

وبعد ، فسنستجلي بما فيه الكفاية مصدر سوء الفهم . فكثير من الإنسانيين لم يتلمسوا إلا العلم لدى شيشرون وليس الشك . لقد وجدوا فيه نموذجاً كاملاً . لكنه الغدر ونكث العهد . لم يكن نموذجاً إلا للقلق . فذروة البالغ في الثقافة المدرسية لا ينحصر في أنه أغناها بل وفي أنه أعطاها طراوة وطعماً للنعومة والكمال حفظها من المجاملات .

وقد رد إراسم ERASME بذلك على الشيشرونيين أثناء مناظرة شهيرة :

« . . . ليس شيشرونياً حقاً من لا يتكلم بطريقة سَوِيَّة ومن لا يعي وعياً عميقاً المسألة التي يتكلم عنها ، ومن لا يحس بأن ما تعنيه كلماته منبثق من روحه . . . »

أن يكون أحد شيشرونياً، على هذا القياس ، يعني أن يكون مجتهداً في أي بحث ، ومن كان مسيحياً، يقول إراسم يعني أن يكون بملئه كذلك ، وبكلمة واحدة ، أن يكون نفسه .

إن شأن هذا الأستاذ كشأن سائر المربين العظماء : إنه يعلم أكثر مما يجعل العقول تكد . واليوم فإن على المعجبين به وعلى خصومه معاً أن يتفكروا فيه .

انتهى

الفهرست

سلسلة أعلام الفكر العالمي

● فرانز فانون ● راسل ● البير كامو ● ماركوز ● غيفارا ● هيدجر ● ماركس ● فرويد
● نيتشه ● انجلز ● ديكارت ● هيجل ● سارتر ● اندريه مالرو ● كافكا ● بوشكين
● بريخت ● بيكيت ● اراغون ● متزيني ● ميكيافيللي ● كانط ● هوغو ● غوته
● دستويفسكي ● لوركا ● لوكاش ● غوركي ● فيبر ● روزا لكسمبورغ ● جويس
● داروين ● تورغينيف ● طاغور ● ماياكوفسكي ● اندريه جيد ● فوكنر ● غوغول
● أورويل ● بودلير ● اناتول فرانس ● رامبو ● اوسكار وايلد ● شتاينبك ● برنارد شو
● غرامشي ● اودن ● توماس مان ● ادغار الآن بو ● رينان ● سبينوزا ● دوركيم ● فلوبير
● فورييه ● بيرون ● سرفانتس ● بيراندللو ● سان سيمون ● مالارميه ● تروتسكي
● لورانس ● هنري ميللر ● تشيخوف ● بلزاك ● غراهام غرين ● بروست ● ديكنز
● بيلينسكي ● سقراط ● تولستوي ● أفلاطون ● جان راسين ● أبيقورس ● فيخت
● باريتو ● سيزار بافيز ● إزرا باوند ● بوذا ● كلوديل ● سانت إكزوبري ● إبسن
● مرلوبونتي ● فيورباخ ● تريستان تزارا ● عارودي ● لوثر ● لويس ماسينيون
● برمنيدس ● كالفن ● مونييه ● كيركجرد ● ديدرو ● مورياك ● القديس أوغسطين
● ستاندال ● شيشرون

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ساقية الجنزير ت ٨٠٧٩٠٠١
برقيا موكيالي بيروت ص.ب: ٥٤٦٠ / ١١ بيروت